صاحبها ورئيس تحريرها
مدحة عكاش
MADHAT AKKACHE

الثقافة
مجلة ثقافية أدبية شهرية
دمشق ص ب ٢٥٧٠ هاتف ١٦٢٩١

حزيران (يونيو)
١٩٦٠
العدد الأول
السنة الثالثة

هذه المجلة

في هذا اليوم ، وفي ظهور هذا العدد تجتاز الثقافة عامين من عمرها لتبدأ عامها الثالث ، وهي أشد ايمانا برسالتها ، وأمضى عزيمة في تحمل ما أخذته على نفسها ، متمسكة بسياستها القومية ، تفتح صدرها لكل قلم عربي أصيل ، ولكل فكرة تدعم كياننا ، وتؤيد نهضتنا في هذه المرحلة الثورية التي نتخطاها ٠

عامان ! ونقف بعدهما لنعترف بالجميل ، جميل من رأى في هذه المجلة رسالته ورسالة امته فأيدها ، ورأى في ظهورها ضرورة لكشف الحجاب عن أدب هذا الاقليم وابراز مواهب ادبائه ومفكريه من رجالاته وشبابه ، فعمل على تثبيت دعائمها بقلبه ويده ولسانه ما استطاع الى العمل سبيلا ، فلهؤلاء منا الشكر ، ولهم علينا الثبات والعمل المتواصل في تأدية هذه الرسالة الفكرية ، تلك الرسالة التي حملت اعباءها مجلة الثقافة وحدها في هذا الاقليم من جمهوريتنا العربية المتحدة ٠

عامان ! ونقف بعدهما لنعتذر عن كل تقصير ، وشهد الله ما تعمدنا هذا التقصير، ولا كنا عنه بالراضين ، وانما فرضته علينا ظروف أعرف بها من يقدر قيمة عمل افرادي كهذا ، وما يلقاه في أول نشأته وظهوره ٠

ولا نجد ما يمحو أخطاءنا - ان سميت أخطاءا - الا ما اعتزمنا من تجديد في أبواب هذه المجلة لاعوامها القادمة ، منتظرين من القراء آراءهم بها ، ونقدهم لها ، وارشادهم ٠ فوالله لصراحة في نقد أعمالنا ، وتعداد هفواتنا أحب الينا من كل مديح وثناء ٠ لان رفعة الفكر وظهور الادب الحق ، رائدنا في كل ما نعمل ٠
والله من وراء القصد ؟

مدحة عكاش

الشعر العربي وفكرة الزمان

الدكتور عبد الكريم اليافي

لقد علمتنا التجربة والنهج العلمي اذا بحثنا فكرة أن نبحثها في نطاق مرسوم وميدان محصور ، بدلا من دراستها بوجه عام وبصورة مبهمة • ولهذا أردنا أن نحدد ههنا بحثنا لفكرة الزمان في نطاق الشعر العربي•

ولا تخفى مكانة فكرة الزمان في الفلسفات القديمة والحديثة،كما لا تخفى مكانة الشعر العربي ذي التراث الضخم بين الكنوز الفنية العالمية •

وسأعتمد على الشواهد الشعرية التي تعرفونها وتعرفون التي ورفت وازدانت أبان القرون المتطاولة ، وأعرضها أمثالها الكثيرة•أختارها من حقول الادب العربي ورياضه مزهوة الالوان ، أنيقة التعبير ، متأرجة العبير،كالازاهير، قد جمعت في طاقة مضمومة ونسقت في اضبارة واحدة هي فكرة الزمان لتشف عن جانب من جوهر الشعر العربي وتكشف عن طرف من عمق الصناعة فيه وتظهر لمحة من براعة الشعراء العرب وكيف يستطيعون أن يأخذوا فكرة ولو غمضت ، ويبدلوها تبديلا يخرجها عن سنن الطبيعة المعروف ويبعدها من حد الاحوال المألوف ، فيوحوا من وراء ذلك بمشاعر فنية متعددة تعدد الاغراض كالمأساة والروعة والسمو والجمال والفكاهة والهزل • من المعلوم أن الفنون تصنف في صنفين : فنون زمانية وفنون مكانية • فالشعر والموسيقى فنان زمانيان يعتمدان على حاسة السمع ، وندرك عناصرهما تتوالى في خلال الزمان • والرسم والتصوير والعمارة فنون مكانية آثارها تشغل حيزا من المكان وهي تعتمد على حاسة البصر •

وهنالك فنون زمانية ومكانية معا كالمسرح والرقص والسينما نسمع فيها ونرى ، وآثارها قائمة في المكان تشغله وفي الزمان تتوالى عناصرها فيه • ومع ذلك فان هذا التصنيف لا يسلم من المناقشة • فالتمثال ليس شيئا مكانيا صرفا بل هو يحتاج في ادراك جماله الى نصيب من الزمان يمضي في تأمل اجزائه ونسبه والطواف حوله لرؤيته من جميع الجوانب • وكذلك القصر الجميل يحتاج الى مدة من الزمن قصيرة أو طويلة كافية لرؤيته من زوايا متعددة وللطواف فيه • والشعر والموسيقى لا بد من أن يشغل تأليفهما حجما من المكان ولو ضئيلا وكذلك اذا ادركا بالانشاد أو العزف شغلا جسما وسيطا كالهواء لانتقال الاصوات الصادرة عنهما الى الاسماع •

ولكن هذه الاعتبارات لا تضعف التصنيف لان آثار الفنون التشكيلية وفن العمارة تنبسط في المكان ، ولان أجزاءها الفنية مكانية صرف،في حين أن الشعر والموسيقى انما لحمتهما العميقة الزمان ، لان الكلمات والنغمات تمضي فيه تترى متلاحقة وليس لتنظيم الكلام أو الانغام في المكان أهمية فنية •

فالشعر الجميل لا تتغير قيمته اذا كان الخط المكتوب فيه رديئا • الخط ، وهو عنصر مكاني للشعر ، لا أثر له في قيمة الشعر •

الا أن هذا التعميم قد يلقى استثناء • فالشعر الياباني والشعر الصيني في بعض الاحيان عرضهما وكتابتهما قد يؤلفان عنصرا هاما في قيمتهما الفنية • ولقد لقي الشعر العربي في مدى تطاوله مثل ذلك • ففي بعض العصور عمد بعض الشعراء الى قرض أشعار ترجع قيمتها خاصة الى ترتيب الكلمات المكاني فيها [1] • بيد أن هذا انما

(١) في المكتبة الظاهرية بدمشق مخطوطة بعنوان المدبجات اعجوبة في هذا الباب • وهي ناقصة من أولها – نظمها عبد المنعم الاندلسي في مدح صلاح الدين الايوبي – وهي مكتوبة بخط محمد مراد الشطي الدمشقي كما أن في كتاب تحفة أهل الفكاهة في المنادمة والنزاهة لجامعة محمد أفندي سعيد اشعارا من هذا النوع •

حصل في عصور الانحطاط وقد ابتعد بالشعر عن رسالته الحقيقية .

الشعر اذن فن زماني . ولكن هذا الفن الزماني يأخذ الزمان الجاري المتجانس فيدخل عليه تغيرا صميما ويجعله غير متجانس اذ يقطعه تقطيعا تتعاقب فيه الحركات والتسكين والاصوات القصيرة والطويلة وتتوالى فيه الاسباب والاوتاد والفواصل على حد تعبير العروضيين ، وهي التي تمثلها التفعيلات . ولسنا ههنا بحاجة الى بيان أوزان الشعر عند العرب وأشكالها التي تزيد زيادة كبيرة اذا اعتبرنا الاوزان المجزوءة الى جانب الاوزان التامة واعتبرنا أشكال الزحافات والعلل التي تطرأ عليها جميعا ولكن لا بد من أن نشير الى مكانة الوزن .

ان هذا الوزن هو اعادة نمط من التفعيلات مرات في البيت فهو عبارة عن دور أو ايقاع . وهذا الدور أو الايقاع يؤلف عنصرا عميقا من صيغة الشعر التي يحصل بها التأثير . وهذا حاصل أيضا في الموسيقى .

على أن مكانة الدور والايقاع تتجاوز الشعر والموسيقى الى جميع ظواهر الحياة . فالليل والنهار ضرب من الدور والفصول الاربعة ضرب من الدور أيضا . ونبضات القلب وحركات التنفس وبعض الافرازات الصم أمور دورية . بل ان الصوت نفسه كما هو معلوم حركة اهتزازية دورية . والنور كذلك من طبيعة اهتزازية بجانب طبيعته الجسيمية « الكوانتية » . حتى المادة كما علمتنا نظرية الميكانيك الموجية ذات طبيعة اهتزازية فوق طبيعتها الجسيمية ، اذ كانت عناصرها الدقيقة الضئيلة تقرن بها أمواج محسوبة الدور .

ولما كانت الطبيعة ذات بنية دورية عميقة كان التأثير فيها ينبغي أن يتم بصورة دورية . لذلك كان التعليم يتم في شكل دوري بأن تخصص دروس تعاد كل أسبوع ، وكان التدريب أيضا يتم في شكل دوري فالسباحة مثلا لا يمكن تعلمها دفعة واحدة بل لا بد من معاودتها في الحين بعد الحين . وكذلك كان الطبيب يصف الدواء على أن يتناوله المريض جرعات مثلا في مواقيت مسماة . ولذلك كان الفنان بوجه عام والشاعر والموسيقي بوجه خاص يعتمدون جميعا على الايقاع في سبيل التأثير الفني وانجاز المتع الفنية .

ان التنفس مهد الايقاع الشعري . والشعر في شكله الاول البسيط الطبيعي حين نتصوره مجردا من المعاني الفنية ليس الا عبارة عن نفس متموج مع نبض العاطفة والشعور . ان « نفس الشاعر » لفظ أكثر من مجرد استعارة . انه يدل على جانب من حقيقة الشعر وماهيته . ولما كان النفس يتبدل بالرفق والحنان والنجوى والرضى والسخط والفرح والغضب والالم والشكوى كانت حركته تتغير رفقا وهمسا ولينا وشدة وتهدجا . وكان لكل ذلك أثر في ايقاع الشعر وأوزانه وبحوره .

الا أن تقطيع هذه الاوزان التقليدية المتعارفة يوشك أن ينقلب في بعض الاحيان الى مجرد احصاء كمي يبتعد عن غضارة « النفحة الشاعرية » . ولهذا نجد عند الشاعر المطبوع حركة تموجية في النفس ذات ايقاع خاص تنضاف الى ذلك التقطيع حتى لتكاد تحجبه . ان شعر البحتري كله دليل ناطق بذلك . أليس قد قيل عنه انه أراد أن يشعر فغنى !! هذا مثل ينثال علي أذكره دون اختبار متعمد .

ذاك وادي الاراك فاحبس قليلا
مقصرا من صبابة أو مطيلا
قف مشوقا أو مسعدا أو حزينا
أو معينا أو عاذرا أو عذولا
وخلاف الجميل قولك للذا
كر عهد الاحباب صبرا جميلا

والذي يتلو شعر البحتري يشعر بشيء من الارتياح لا يكاد يجد له مثيلا عند الشعراء الآخرين بسبب هذا النفس الغنائي المتموج الطلق الذي يتبع برغم طلاقته نسق الاوزان المتعارفة .

فاذا قدرنا مكانة الطبع في الشعر حق قدره وأدركنا خصب الحناجر الشاعرية التي تطمح الى الانشاد الممتع استطعنا في بعض الاحيان أن نتفهم نشوء التناقض في العصر الحاضر بين خصب هذه القوى الشاعرية الناشئة وبين

ضغط الاوزان التقليدية المتعارفة اذ تكاد تبدو هذه الاوزان ضيقة بالنسبة لقوى غضة حديثة لا تزال مبهمة تتلمس سبل تفتحها ، أو تبدو تلك الاوزان وكأنها أعطت في الماضي كل ما تستطيع أن تعطيـه من نغمات ولا يسع الشعراء الحديثين أن يمارسوها بمهارة الشعراء القدماء فهم يبحثون عن قيثارات عروضية جديدة تلائم أنفاسهم ذات الاشجان الجديدة ، وتناسب حناجرهم وقد بعد العهد بها عن حناجر القدماء •

قضية الوزن الشعري وصيغته الايقاعيـة الصميمة واتصال ذلك بالزمان أمر عام في الشعر كله وليس خاصا بالشعر العربي وحده •

وثمة شؤون أخرى متصلة بالزمان وهي عامة في الشعر والادب ، نريد أن نمسها مسا رفيقا لاستيفاء البحث • من هذه الشؤون أن الحادثة التي ترويها القصيدة لا يساوي زمان روايتها زمان الحادثة الفعلي • فقصيدة عمر بن أبي ربيعة :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر
غداة غد أم رائح فمهجر

يقص علينا فيها مغامرته المشهورة :

وليلة ذي دوران جشمني السرى
وقد يجشم الهول المحب المغرر

ويصف كيف انتظر حتى غاب القمر الصغير الذي رصد غيابه وحتى رجع الرعاة بعضهم على أثر بعض ، ونام السامرون تباعا :

وغاب قمير كنت أرجو غيوبه
وروح رعيان ونوم سمر
وخفض عني الصوت أقبلت مشية
الحباب وركني خيفة القوم أزور

هذه الحادثة التي ربما كانت خيالية استغرق زمانها الليل كله :

فما راعني الا مناد ترحلوا
وقد لاح مفتوق من الصبح أشقر

ونحن نقرؤها في ربع ساعة •

وكذلك موقعة عمورية ، فقد حصلت في أيام ولكن أبا تمام يصفها ويثير ذكراها وينوه بها فيما تقرب مدته من ربع الساعة أيضا ، اذ لا يعيد الشاعر جميع تفاصيل الحادثة ، بل يكتفي بالنقاط التي تهمه وتسترعي انتباهه ويكون لما أثر في نفسه أو في نفس السامع ، كما أن الوصف الادبي أمر فكري مجرد عن ثقل المادة التي تشملها الحادثة ولذلك كان أقصر وأسرع حركة وأداء •

ثم ان الشعر الجميل كشأن سائر المتع الفنية عندما نتأملها ننسى أنفسنا ونغفل عن الزمان نفسه • لقد نوه الفيلسوف شوبنهاور بطبيعة التأمل الفني واعتبره كالبلسم الذي ينسينا تباريحنا وشواغلنا ويسلينا عن وطأة الارادة • وقد استغل الفيلسوف بعض الاساطير اليونانية في بيان ذلك •

ما أشبهنا حين نتأمل أثرا فنيا بسيزيف حين يخيل له أن الصخرة التي يرفعها الى أعلى وتنحدر أبدا الى أسفل قد استقرت فينة ، وباكسيون حين يحسب أن الدولاب الذي يديره في الجحيم قد توقف ملاوة ، وبفتيات الدانيد حين يتوهمن أن البراميل التي يملأنها ولا غور لها قد امتلأت هنيهة • نحن بالتأمل الفني نخرج عن قيد الزمان ، نشعر كأننا في حالة أشبه ما تكون بالخلود « أيهمنا – على حد تعبير شوبنهاور – في مثل هذه الحال أننا في قصر أو في سجن حين نتملى غروب الشمس ؟ » •

ثم ان الحركات والاوقات والاشياء التي يصورها الفن أو الشعر ترتفع من صفة العبور والزوال الى صفة البقاء والدوام ولو بصورة شكلية ، ولولا الشعر والفن لبادت وتلاشت ، كما باد وتلاشى الالوف من أمثالها ، فالفن يخلد ولو نسبيا ما يصفه ويصوره من الافعال والحركات والمشاعر والذكريات •

لنلخص هذه النقاط التي مررنا بها • ان صيغة الشعر الزمنية تطبع الزمن الذي تعتمده في العروض بنفس الشاعر ومزاجه وشخصيته ونبض عاطفته وخياله وفكره • انها تدخل على الزمن الخارجي تغييرا في الكيفية والايقاع واضحا ومؤثرا • ثم ان رواية الشعر للحوادث تستغرق زمنا خاصا يختلف عن أزمنة الحوادث اختلافا كبيرا ،

وكذلك قراءة الشعر أو التأمل الفني بوجه عام يصرفنا عن الاحساس بالزمن الخارجي ويشعرنا بحالة كأن الزمن فيها قد وقف مجراه ، حالة تشبه الخلود والابدية، كما أن الشعر يرفع بعض الافعال والحركات من صفة الزوال الى صفة البقاء الطويل والاستمرار .

ننتقل الآن الى دلالة الالفاظ ونفحص مجال المعاني الفنية المتصلة بالزمان في الشعر العربي وربما ننتهي الى نتائج ليست أقل أهمية .

نحن هنا لا نولي عنايتنا الافكار الفلسفية التي جاءت منظومة على ألسنة بعض الشعراء فهي لا فرق عندنا بينها وبين أمثالها التي وردت في النثر . نحن هنا نغفل أمثال قول المعري :

ثلاثة أيـام هي الدهر كلـه
وما هن الا الامس واليوم والغد

ونغفل كذلك أمثال قول الاعرابي :

منع البقـاء تقلب الشمس
وطلوعهـا من حيث لا تمسي
وطلوعهـا بيضاء صافيـة
وغروبهـا صـفراء كالورس
تجري على كبـد السماء كما
يجري حمام الموت في النفس
اليوم يعلم ما يجيء بـه
ومضى بفصل قضائـه أمس

وكذلك مثل قول المتنبي :

مشب الذي يبكي الشباب مشيبه
فكيف توقيه وبانيه هادمـه

وبيتي بن الرومي :

تضعضعه الاوقـات وهي بقاؤه
وتغتاله الاقوات وهي لـه طعم
اذا ما رأيت الشيء يبليه عمره
ويفنيه أن يبقى ففي دائه عقم

على جمال هذه الابيات وبلاغة حكمتها . ونهتم خاصة بالعواطف الشعرية المتصلة بالزمان وبدراسة سبل التعبير التي يسلكها الشاعر في الدلالة على الزمان .

من أهم العواطف التي اعتمدها الشعراء العرب فيما يتصل بالزمان ما تثيره رؤية الطلوع والربوع الدارسة والآثار الباقية من ذكريات عاطفية . يأتي الشعر العربي في طليعة الشعر العالمي الذي وصف الاطلال وبكاها .

لقد نوه الفيلسوف شوبنهاور بتأثير الاطلال الجمالي في النفس . ذلك أنها صارعت الزمن في معالمها الباقية . انها تعبر عن نضال ارادة مضى أثرها الحي . فهي كما يقول زيمل تؤثر في الانسان كما يؤثر صراع البطل من خلال المأساة . فلا غرو اذن اذا وجدنا العرب القدماء يقفون بالطلول التي تحمل عنها الاحباب ويبكونها في جو من الذكريات الحلوة الحالمة .

ولا غرو اذن اذا وجدنا الشعراء العرب الحديثين يتغنون بآثار أجدادهم المجيدة الخالدة تهيب بهم وتوحي اليهم بعظمة البنيان السامق السابق .

يقف زهير بن أبي سلمى بعد عشرين حجة بأطلال أم أوفى فيعرف الديار بعد جهد ويصف ما صارت اليه ويصور العين والآرام في الربوع وهي تمضي جيئة وذهابا، واطلاؤها ينهضن من مجاثمهن :

أمن أم أوفى دمنـة لم تكلم
بحومانة الـدراج فالمتثلم
ديار لهـا بالرقمتين كأنها
مراجع وشـم في نواشر معصم
بها العين والآرام يمشين خلفة
وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم
وقفت بها من بعد عشرين حجة
فلأيا عرفت الديار بعـد توهم
أثافي سـفعاً في معرس مرجل
ونؤياً كجذم الحوض لم يتثلم

هذه الرسوم الشاخصة تعود بالشاعر الى الماضي فيتذكر أحبابه حين غادروها ويصف رحلتهم ويتتبعهم بخياله حين رحلوا تتبعا جميلا في شعر قل أن يضارعه بيان في دقة الدلالة وصدق الشعور ومهارة الملاحظة :

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن

تحملن بالعلياء ، من فوق جرثم

الى آخر هذه الابيات البديعة ٠

وليس لدينا المجال الكافي لنعرض تفنن الشعراء في وصف الرسوم والاطلال ٠ ولكننا نحب أن نشير الى أن الزمن عادة يعفو الآثار ويدرس الطلول ويبلي الديار ، حتى انها تقوي وتقفر وتزداد بلى على الايام ٠ ولكن الشاعر العربي بحسه المرهف وعاطفته المحبة ولاعتياده الطلول والآثار يعكس الآية أحيانا فيجد الزمن كأنه قد خلع على الطلول حسنا وثوب نعيم وزادها طيب نسيم ، فهو في شعوره هذا كأنما يثأر من الزمن ٠

يقول أبو نواس :

لمن دمن تزداد طيب نسيم

على طول ما أقوت وحسن رسوم

تجافى البلى عنهن حتى كأنما

لبسن على الاقواء ثوب نعيم

نعرف أبا نواس قد نقم على الشعراء قبله وقوفهم بالاطلال وبكاءهم اياها وتهكم عليهم تهكما لاذعا ٠ ولكننا نعرفه أيضا شاعرا موهوبا يقدر الفكر الفنية قدرها ويوليها عنايته ولا يمنع نفسه من أن يأخذها اذا وجدها عند غيره ممن سبقه أو عاصره ٠ وقد أبان النقاد القدماء أن أبا نواس قد أخذ هذا المعنى من قول الاعرابي :

شطت بهم عنك نية قذف

غادرت الشعب غير ملتئم

واستودعت سرها الديار فما

تزداد طيبا الا على القدم

ان الشعور بالمأساة عند تأمل الاطلال[2] يرتفع الى درجة الروعة عند وصف الآثار القومية الخالدة ٠ وقد تفنن في ذلك الشعراء الحديثون وفي الطليعة أميرهم شوقي هذا وقد انتبه هذا الشاعر الكبير الى فكرة الزمان فاستغلها – ان جاز هذا التعبير – استغلالا واسعا في أشعاره بمناسبات شتى ولا سيما في وصف الآثار الفرعونية والاوابد العربية ٠

فاذا استمعنا اليه مثلا يناجي أبا الهول شعرنا بالروعة تنساب في نفوسنا أمام أثر باق لم يستطع الزمان برغم تقادمه أن ينال منه :

أبا الهول طال عليك العصر

وبلغت في الارض أقصى العمر

فيا لدة الدهر لا الدهر شب

ولا أنت جاوزت حد الصغر

الام ركوبك متن الرمال

لطي الاصيل وجوب السحر ؟

تسافر منتقلا في القرون

فأيان تلقي غبار السفر

أبينك عهد وبين الجبال

تزولان في الموعد المنتظر

الى آخر القصيدة ٠

وكأنما قصد شوقي من خلال وصفه الرائع للزمان الماضي الى الحكمة والموعظة والعبرة زيادة على المتعة الفنية ٠ فهو يخاطب في نهاية القصيدة أبا الهول وهو يرمز عنده الى مصر اذ أحزنه اذ ذاك جمودها الذي كان يشبه جمود التمثال فهو يهيب به للحركة ، وكأنه يتشوف الثورة من وراء الغيب :

(البقية على الصفحة ٤٩)

---

(٢) من آسى الشعر واحزنه مما اعرفه ويتصل بفكرة الزمن قول متمم بن نويرة :

وكنا كندماني جذيمة حقبة

من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فلما تفرقنا كأني ومالكا

لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

فالزمن الطويل الماضي الذي عاشه متمم وأخوه مالك معا صنوين قد ضاع كله بهلاك مالك ، حتى أنه ليبدو وكأنه أقل من ليلة واحدة أو كأنه لا شيء ٠ هذه المقابلة بين الزمنين تشعرنا بعمق المأساة ٠ ولكن هذا الشاعر المجيد كما انتبه الى ضياع الزمن السالف سدى على سابق توطده ومنعته وطيبه ينتبه انتباهة قوية في أبيات أخرى لا تقل مأساة عن تلك ٠ ولكنها تتعلق هذه المرة بالمكان ٠ لقد مات أخوه ولم يبق منه الا هذا القبر يشغل حيزا صغيرا في المكان فهو يعمم تعميما واسعا : ينظر فيرى قبر مالك في كل قبر ٠ ان كل قبر أصبح يصله بالموت بعد اذ أضاع كل زمان قضاه مع أخيه الهالك :

لقد لامني عند القبور على البكا

صحابي لتذراف الدموع السوافك

وقالوا أتبكي كل قبر رأيته

لقبر ثوى بين اللوى والدكادك

فقلت لهم ان الأسى يبعث الأسى

دعوني فهذا كله قبر مالك

Recueil : Frisson

لفافتي

Ma Cigarette

COLETTE SOUHELL

ترجمة : كوليت سهيل

Tu m'as appris à fumer
Pour te tenir compagnie ....
Et parce que je t'aimais
J'ai vécu cette manie ....

★

J'ai aimé la cigarette
Elle avait un peu de toi ....
Un peu de nos tête - à - tête
De tes mains.... de notre émoi ....

★

Quand tu partais loin de moi
Ton ombre m'abandonnait
Je cherchais entre mes doigts
Cette odeur que je connais ....

★

Je voulais ta compagnie
Dans le gris je te voyais
A présent .... quelle ironie ....
Je fume pour t'oublier !

★

علمتني أن أدخن
كي أظل في رفقتك ..
ولانني كنت أحبك
عشت هذه العادة ..

★

أحببت اللفافة
كان فيها شيء منك ..
شيء من خلواتنا
من يديك .. من رعشتنا ..

★

وحين كنت تبعد عني
وكان ظلك يفارقني
كنت أبحث بين أناملي
عن هذه الرائحة التي أعرف ..

★

كنت أريد أن أبقى معك
وفي اللون الرمادي .. في الدخان كنت أراك
أما الآن .. يا للسخرية ..
انني أدخن كي أنساك !

★

من آثار الفن العربي في الاندلس

بقلم : **الدكتور نادر العطار**

في القرن السابع الميلادي ، أتم العرب وحدتهم في شبه الجزيرة العربية ، ثم خرجوا غازين فاتحين ، فاحتلوا بلاد الشام في مدة وجيزة وبعد أن حسروا من القياصرة وثلوا عروش الاكاسرة ، وملكوا اقليم العراق وبلاد فارس انتشروا غربا في افريقيا وشرقا نحو الهند والصين ؛ وفي سنة (٧١١) عبر العرب بقيادة طارق بن زياد المضيق الذي يفصل افريقيا عن شبه الجزيرة الايبرية، فاجتازوا الجبل الذي سمي باسم القائد الفاتح، وابتدأوا غزو اسبانيا الذي تم بسرعة عجيبة ، ليعبروا بعدها الجبال الشمالية ، ويتوغلوا في فرنسا حتى بواتيه .

وكان عهد الامراء التابعين للخليفة الاموي في دمشق، ثم دولة الامويين في الاندلس التي لم يلبث العرب بعدها أن انقسموا طوائف وأحزابا يتنازعون الامصار، ويختلفون على الاراضي ، بشكل استغله الاسبان الذين أخذوا يتقدمون مستعيدين اسبانيا من جديد، فاستنجد الاندلسيون بالمرابطين الذين خفوا لنجدتهم ، والحقوا بالاسبان في معركة الزلاقة هزيمة قاصمة مدت حكم العرب بالاندلس أربعة قرون أخرى؛ ولكن الاسبان لم يلبثوا ان استعادوا أنفاسهم ، وعادوا الى التقدم من جديد ، بينما عاد العرب الى خلافاتهم وثوراتهم ضد حكامهم حتى وقعت معركة العقاب سنة (١٢١٢) التي انتصر فيها الاسبان بشكل أنهى حكم الموحدين في بلادهم ، وانقسمت الاندلس الى دويلات سقطت بعد ذلك واحدة واحدة في أيدي الغزاة الجدد ، الى أن سقطت غرناطة سنة (١٤٩٢) ، وانتهى حكم العرب لذلك الفردوس الجميل .

* * *

وفي خلال تلك الحقبة الطويلة التي امتدت حوالي (٧٨١) سنة ، عرفت اسبانيا العربية ثلاثة تيارات فنية هامة هي على التوالي : طراز الامويين في العمارة والبناء، طراز الموحدين ، فن بني نصر في غرناطة آخر معاقل العربية، ويمكن أن يضاف اليها فن المدجنين وهم العرب الذين بقوا تحت الحكم الاسباني .

أما فن الامويين في الاندلس ، فقد امتاز باستعمال الحجر والمرمر على نطاق واسع ، الامر الذي جعل أبنيتهم الضخمة تقاوم عاديات الزمن وتبقى شامخة زاهية ، ولم يكن هناك طراز خاص بالاعمدة في جامع قرطبة، لان الامويين اعتمدوا في بنائه على أعمدة في جامع قرطبة، وأعمدة بيزنطية أهدتها القسطنطينية الى عبد الرحمن ، كما أن الاقواس الحدوية (المشابهة لنعل الفرس) كانت غالبة في بنائهم ، منها ما هو مستدير ، ومنها ما يحتوي على فصوص ، أو أقواس صغيرة ضمن قوس كبير أو قد تتقاطع هذه الاقواس مؤلفة أشكالا هندسية غاية في الجمال والتناظر .

على أن الميزة التي لا ترى في العالم أجمع الا في العمارة الاموية بقرطبة ، هي بناء الاقواس المزدوجة ، على طبقتين ، ويلاحظ في الاقواس تناوب الحجر والقرميد بشكل جميل . أما تيجان الاعمدة فمنها الكورنتي ، ومنها الايوني ، ومنها المزخرف بنقوش نافرة ، أما الزخارف المعمارية ، فتتميز على عادة الفن الاسلامي ، بالاقلال من تصوير الكائنات الحية ، والاعتماد على الزخارف النباتية والهندسية والكتابة والالوان الجميلة التي تزين الجص والخشب وأحسن الامثلة الباقية عن الامويين هو جامع قرطبة .

* * *

ثم تعاقبت الاحداث، فانهارت الخلافة الاموية بالاندلس ، وتبع عصر ملوك الطوائف نزول المرابطين ثم الموحدين الذين فرضوا على فن العمارة اتجاها جديدا يتلخص في

التقشف والاقتصاد في الزخارف ، الا أنهم رغم ذلك تعشقوا فن الخلافة الاموية وحاولوا تقليده ، وهكذا نهض جامع اشبيلية الكبير على نسق جامع قرطبة الكبير، وقصر اشبيلية يحاكي زهراء الناصر وزاهرة المنصور ولكن عظمة هذه الابنية الضخمة لم تكن تشابه أبنية أمويي الاندلس في متانتها وصلابتها • كان الموحدون في عجلة من أمرهم ، تدفعهم رغبتهم للاقتصاد في البناء — رغم ضخامة مشاريعهم — الى استعمال الآجر والطوب والقرميد وغيرها من المواد المتواضعة التي تغطيها قشرة من حجر منقوش ، أو جص مزخرف تخفي وراءها فقر البناء الاساسي دون أن تزيد مواده متانة أو صلابة•

وقد اهتم الموحدون ببناء القلاع والحصون بشكل خاص ، لانهم كانوا في حالة حرب مستديمة مع الاسبان، وتفوقوا في العمارة العسكرية على ما يسمى الآن بأوروبا الغربية ، واستعملوا قاعدة السور الداخلي والسور الخارجي،وجعلوا أبوابها متعرجة المداخل لتقطع اندفاع المهاجمين ، واستعملوا الابراج المنفصلة لضرب العدو من جانبيه •

وأشهر مثل باق عن الموحدين (الجيرالدا) أو مئذنة جامع اشبيلية الكبير ، ذلك البناء الضخم الجميل الذي أصبح يميز اشبيلية بشكل خاص ، ومن أبرز ما بقي عنهم من العمارة العسكرية برج الذهب في اشبيلية أيضا •

* * *

ثم كانت معركة العقاب سنة (١٢١٢) التي أخرجت الموحدين من الاندلس ، وكان نصر الاسبان فيها ساحقا انقسم بعده العرب الى دويلات منها دولة بني نصر في غرناطة التي دامت حتى سنة (١٤٩٢) ، والتي غيرت المفاهيم الفنية ، واتخذت مذهبا جديدا كان للمدجنين هاديا ونبراسا في الامارات المسيحية مدة قرنين ونصف القرن •

وقد امتاز الفن الغرناطي بكثافة زخارفه وكثرتها ، بحيث لم يترك مكانا الا زينه بالنقوش الكتابية والنباتية والهندسية التي زادت الالوان الزاهية في جمالها وبهائها ، وأكثر من استعمال الحجر والمرمر في الاعمدة وتيجانها، واستعمل اسلوب الاعمدة المتعددة التي يستند عليها قوس واحد • وأكثر من الحدائق وأحسن هندستها وتنسيقها بحيث كان القصر وحدائقه يشكل القصر المثالي للملوك والافراد الذي لا نرى مثيلا له في أي قصر أوربي آنئذ•

أما العمارة العسكرية ، فقد تبعت أصول القلاع العربية ، أو الموحدية بشكل خاص ، فاستبدلت الابراج المستديرة بالابراج المضلعة ، وعندما بدأ استعمال البارود عمد الاغالبة الى تصفيح الجدران وتقويتها • وأهم مثل يجمع بين جمال القصور المدنية وسحر الحدائق وقوة التحصين ، هو قصر الحمراء في غرناطة وقصر جنة العريف الملحق به وحدائقه •

* * *

بقي أن نذكر كلمة عن فن المدجنين • واصل الكلمة عربي : دجن في الارض أي أقام فيها ، والمدجنون هم العرب الذين أقاموا في الاندلس بعد زوال الحكم العربي منها ، وفنهم مزيج من فن الاسبان الغزاة وفن العرب الراحلين ، بحيث كان كل فنان يعمل حسب المنطقة التي كان يشيد فيها أبنيته ، وحسب تعاليم صاحب البناء ،وقد شاع هذا الاسلوب بين الطبقات الشعبية على الاكثر ، ولا تزال بعض اساليبه وآثاره قائمة حتى الآن في اسانيا من أقصاها الى أقصاها •

تلك آثارنا تدل علينا
فاسألوا بعدنا عن الآثار

خلود

واتيت كالامل المطل فاشرق الدرب البعيد

واصطفت الاطيار للقيا وفي فمها نشيد

وتجردت اشجار ايكة حبنا عن صمتها

فتناغمت اغصانها باللحن تبدأ أو تعيد

ومشيت مثل الآه رنحها التنقل والشرود

فتفتحت في خطوك الازهار وانشقت ورود

وشدوت فانتحر النسيم صبابة وتدلها

وأطل من شفتيك خلف اللحن قيثار وعود

وضممتني والروض يخفض في هواك جناحه

والصمت بعد البوح جن بساطه الممدود

فتعثرت بخريرها النشوان ساقية الهوى

واضلها عن دربها في الشاطئين وعود

ورقصت فانطلقت تشاويقي على وقع الخطى

وتجاذبت كأس العناق مراشف وخدود

وهمست في اذني : أحبك . فانتشى ابدي البعيد

وصافحت سمعي على نعمى هواك عهود

حسبي اذا اصبحت ذكرى في مجاهل وحدتي

اني الى لقياك اهفو في الهوى واعود

انا لست أؤمن ان للحب الاصيل نهاية

عمر الهوى في شرع حبي سرمد وخلود !...

فؤاد العادل

البير كامو

بقلم : ذكية الصوفي

« هل لاحظتم بأن الموت وحده هو الذي يوقظ مشاعرنا ؟ كم نحب الاصدقاء الذين يغادروننا؟ كم نعجب بأساتذتنا الذين لم يعودوا يتكلمون،فمهم مملوءبالتراب» من كتاب كامو « السقوط » .

وانتبه الادباء الى أنهم بفقدهم كامو ، فقدوا عبقرية من أكبر عبقريات الادب المعاصر . فمواهبه ومزاياه تبشر بأنه سكون مبدعا من أكبر المبدعين في هذا العصر، وسيصل الى القمة التي وصل اليها سرفنتس ودستوفسكي.

وخف كل من عرف البير كامو الى أن يعرفنا به ، وان يحيط بنتاجه ، وأن يدرس كتبه ويحلل أقواله ويكشف عن آرائه وأفكاره .. ويرى مدى تأثيره .. فيوضح بذلك صورة حياته التي تركها موته المفاجىء غير منتهية .

ووضعه عارفوه موضع نجم جديد في سماء الادب مع أنه يقول في مقدمة كتابه « الوجه والقفا » (عندما أعاد نشره) : « بعد عشرين عاما من العمل والانتاج ، لا أزال أحيا على فكرتي بأنني لم أبدأ بعد نتاجي » . لقد كان يعتبر كل ما أنتجه مجرد محاولة ملاءمة بينه وبين عصره... ومع ذلك لا بد لنا من اعتبار تأليفه كنتاج كامل .

ومن خلال جميع هذه النصوص ، وهذه الذكريات وهذه الشروح ، أي صورة لالبير كامو تظهر ؟ من الصعب أن نجيب .. فكأن أطيافه هذه التي يحاول النقاد أن يظهروها ، تبدو متتالية دون أن تنطبق على بعضها البعض تماما .. متناقضة ؟ لا ولكنها مختلفة ، متنوعة .. وما ذلك الا لأن البير كامو لم يأخذ الوضع النهائي الابدي بعد .. وتمثاله لا يزال يحتاج الى صقل من هنا ، وتعديل من هناك ..

يظهر من خلال مؤلفاته بأنه مبشر بالاخلاق وروائي ومؤلف دراما ومسرحيات ، وفيلسوف .. أما هو فما كان يحب أن يعامل كفيلسوف معتبراً نفسه فنانا قبل كل شيء . وبالفعل ، يمكن اعتبار محاولاته .. كاعتراف لنفس تتحدث مع نفسها ، وعن نفسها بحرية ، ومهما قيل بأنه لم يحب مطلقا أن يعلم ، نرى في كتبه درسا .. درسا لا يفهمه الا من كان عنده الحب والنقاء والجرأة .. وبدرجة تتناسب مع درجة كامو .. أي كامو نفسه .. فهو قبل كل شيء رجل حوار ، رجل مزدوج ، له شعوران وضميران وذاكرتان وحياة مزدوجة .

يأخذ الكلام الدور الرئيسي في مؤلفاته .. يتناول كامو حادثا يخترعه أو يقرأه في الصحف أو يستمده من التاريخ.. يتأمله طويلا ويتغلغل في أعماقه ويعلله ويحلله ويناقشه فينشأ من جراء ذلك تأرجح بين (الشرعي) و (اللاشرعي) .. لا شيء يتحرك في مؤلفاته الا الكلام .. يتكلم هو أو يتكلم بطل الرواية .. يتكلم عن نفسه .. لا عن أحد الا عن نفسه .. وكم ينسيه حديثه هذا الحادث الاخلاقي الذي أثاره .. ويشغله عن الآخرين ولو تظاهر بالاهتمام بهم .. يوجه كلامه الى محدث غير مرئي .. يناقشه ويسأله .. ان هذا المحدث ليس أحدا منا .. انه هو نفسه .. فهو يضع الاسئلة والاجوبة .. وغالبا ما يكتفي بالاسئلة.. أسئلة عارمة بالحقائق، طافحة بالبراءة .. يقف أمامها مرتبكا خائفا شاكا .. ثم يجيب (بلا أدري !) مؤثرة قد يعيبها عليه بعض النقاد ، ولكنها بعرف البعض الآخر أفضل بكثير من اتخاذ وضع معين لا يلبث أن يتخلى عنه صاحبه اذا ما زهد به الناس .

ففي كتابه « الغريب » الذي تسيطر عليه فكرة (اللامعقول) ، نرى أن البطل مورسو « الذي هو كامو نفسه) يرفض التمثيل .. فهو عفوي الى أبعد حدود العفوية .. يرفض الامل في دخول مدينة الهية .. المدينة التي تناقض الواقع.. لقد رفضته الحياة الاجتماعية

المزيفة ، أي الحياة الاجتماعية ، لا من حيث كونها مؤلفة من أشخاص طبيعيين ولكن من حيث هي رياء مقدس . ليس مورسو مجردا من الذكاء ومن الحساسية (ولكن حساسيته ليست مصقولة).. ومع ذلك يرفض أن يتظاهر بألم لا يشعر به عند دفن أمه .. وفضائل الحذر والمروءة والعدالة التي يراها المؤلف في هذا (الغريب) تفسر تصرف مورسو في النهاية عندما يرفض أن ينكر ما ترتكز عليه حياته .. بل حياته بالذات .

يبدو (مورسو) غريبا وغير غريب في الوقت ذاته .. يبدو غريبا بالنسبة لحكامه ولبعض القراء... وغير غريب بالنسبة لعارفيه .. ولكن ألم يكن يلاحظ نفسه تصرف بعض الاشخاص غير طبيعي ؟!

وفي الرابع من كانون الثاني ١٩٦٠ برهنت وفاة كامو وهو في السابعة والاربعين من عمره ، بأنه ليس «بغريب» وهل يكون غريبا من يخف الجميع الى تحيته في الصحف والاجتماعات المعقودة لتأبينه ؟

انه صديق وان لم يعرف شخصيا .. وقريب لا يمل حديثه .. فقراؤه الذين كانوا يتبعون كتبه واحدا بعد الآخر كانوا يرون فيها جوابا لبعض مشاغلهم ويستمعون فيها الى صوت صديق بسيط وصريح .

ان قسما كبيرا من مؤلفات البير كامو يستند على مبادىء أخلاقية مبهمة ومجردة ولكنه كان دائما يناضل كي يحفظها في عصر انحدرت فيه الحضارة الاوروبية منذ نصف قرن نحو الانحلال. فمذهبه الانساني كان احتجاجا على قلة العدالة ، ودعوة الى التعاون ، الطريق الوحيد لتهدئة الآلام وجعل الحياة ممكنة .. كان يفتش عن النور ...

كان يبني جسرا بين ماض مجهول غالبا ، ومستقبل مبهم .. كان يوفق بين الفكرة والعمل ، والقلق والعدالة ..ربما كان « مالرو »و« جيد »و« بروتون » يستطيعون أن يعبروا بصورة أقوى ، ولكن صوت كامو كان وحده الصوت الصافي القادر على الوصول الى الاسماع .. كان كلامه واضحا ، نقيا ، يدهش رجال الفكر والجمهور ، ولذا رأينا الادباء يفتشون عن صداقته .. فهو المنتقم لهم من عدم فهم الناس اياهم.. وهو رسولهم وحامل كلمتهم للجيل الجديد .. اذ أنه أول مبشر بالاخلاق يتكلم لغة الاخوة ، ودرسه ينبعث لا من كتبه فحسب ، بل من وفائه الى نفسه ، ومن الالتئام الكبير الذي يجمع دائما بين أفكاره وأفعاله .. في عصر قلما يلتئم فيه سلوك الافراد مع المبادىء التي نادوا بها .

واستطاع كامو بما ينوف على الخمس عشرة سنة بقليل أن يجتاز ميدانا من ألمع ميادين التاريخ الفرنسي .. واستطاع أن يجد طريقه .. أن يجد قاعدة سلوك عادل مع النفس ومع الغير .. ولذا وصل بهذه السرعة والى هذا المدى .. ونالت تآليفه جميعها هذا النجاح وهذا المجد العالمي .

ولتعذر درس وتحليل قصص البير كامو ومحاولاته ومسرحياته ، سنحاول الآن أن نستنتج الافكار المتتالية في مجموعته التي يمكن أن نجزئها الى مراحل :

كتب المرحلة الاولى : « الغريب » « خرافة سيزيف » و « كاليكولا » .. يثير كامو فيها فكرة (لامعقولية الوجود) بثلاث طرق مختلفة الرواية والمحاولة والمسرحية .

أما في كتب المرحلة الثانية : « الطاعون » «الرجل الثائر» « العادلون » تبلورت لامعقولية الوجود التي بشرت بها كتب المرحلة الاولى ، وظهرت جلية . ووجدت تعبيرها ووضوحها .

أما كتاباه « السقوط » و «المنفى والمملكة» فانهما يمثلان مرحلة انتقالية الى المرحلة الثالثة التي ستكون أهم هذه المراحل والتي ستبدأ برواية حقة .

لقد كان كامو يعلق كثيرا من الآمال على هذه الرواية، ويعتبرها نتاج نضوجه ككاتب ، ويعتبر سنة ١٩٦٠ سنة روايته هذه .. لقد رسم مخططه وانكب على العمل وقال: « ان تحقيق ما خططته طويل ولكنني سأصل .. »

ربما كان ينقص مؤلفات كامو ، الأسلوب الغنائي ، ولكنها بالمقابل يتجلى منها نبل وطيبة ظاهران وذكاء عميق أقرب الى العبقرية .. ففي جمهورية الادب حيث تتنافس

المشاعر المؤمنة بالنزعة الانسانية منذ أكثر من عشرين سنة •• كانت عبارات كامو وحدها واضحة •• ومؤثرة•

كان كامو مناضلا ، ذا نفس رزينة ، غنية بفضيلة الدين الكبرى : العطف ، العطف الذي يعطى بمحض الارادة •• عطف الند على الند ، لا السيد على المسود •• مصدره قلب حليم ، محب للحرية ، مناهض للعنف ، ينبعث من روح نضال العصر الذي هو نضال للروح •

وقد يتجلى في مسرح كامو هذا النضال وهذه الثورة•• ثورته التي تحولت من بحران في « كاليكولا » الى ثورة أخوية في « العادلون » •• الذين يناضلون من أجل سعادة العالم ويفتشون عن طريقة يصونون بها القيم الفردية •• وقد تأثر كامو بمن يفضلهم من الكتاب كموليير ومنترلان •• وبالاسبانيين •• ففي كتابه « سوء التفاهم » يذكرنا كامو بلوركا •• كما أن أثر دستوفسكي ظاهر في كتابه « العادلون » •

كان كامو يعتقد بأن الدور الفعلي الوحيد للرجل المولود في عالم لا معقول ، هو أن يحيا ، وأن يكون عنده شعور بحياته ، بثورته ، بحريته •• فهي الطريقة الناجعة التي تقود الى النور •• الى الشمس ••

ومن الملاحظ أن البير كامو يتكلم في جميع مؤلفاته عن الشمس ففي كتابه « الغريب » بدأ بها نضاله مع اللامعقول •

وفي كتابه « الموت في الروح » يقول البير كامو •••
« اذ أنني لم أتكلم بعد عن الشمس •• كما انني وضعت وقتا طويلا لفهم تعلقي وحبي لعالم الفقر الذي قضيت فيه طفولتي ، الآن فقط ، رأيت الدرس الذي أعطته الشمس والبلاد التي رأت فيها عيناي النور » •

وفي كتابه « سوء التفاهم » نرى (جان) يدخل بيته ليصحب أمه وأخته الى بلاد الشمس •

وفي كتابه « الطاعون » في اليوم الذي تخلصت فيه وهران من المصيبة التي ألمت بها •• أرسلت الشمس المنتصرة على النسمات الباردة التي تكافح في الجو ، منذ الصباح •• أرسلت على المدينة موجات متواصلة من النور الدائم •

ويقول في كتابه « أعراس » : (مع وجود هذا المقدار من الشمس في ذاكرتي ، كيف استطعت أن أراهن على اللامنطقي) •

يقول الناقد روبير شامبيني : « ان هذا الهوى بالشمس وبلاد الشمس يفوق بكثير ما يسمى حب الطبيعة • انه دين (مورسو) الذي يميل الى تأليه البحر والسماء (لا السماء الغائمة ، ولكن سماء البحر المتوسط ، الذي يراقب « الغريب » على صفحاتها غياب ألوان تصل النهار بالليل »•

ومرد ذلك الى نشأته في بلاد الجزائر •• اذ أن كامو ولد في الجزائر وبقي فيها حتى سن الرجولة وربطته بها جميع ذكريات طفولته وشبابه ، وصداقته ، حياته العائلية حياته الزوجية وحتى حياته السياسية •• وبقي للجزائر وفيا •• ولم يترك مناسبة دون أن يعرف لها هذا الوفاء •• وأن يعترف بأنه من هذا الشعب المتأصل ، وبأنه لا يريد أن ينفصل عن « الشعب المسلم » فيقول : « فيما يتعلق بي ، لقد كلفت بالارض التي ولدت فيها ، ومنها أخذت جميع ما يكونني ، ولم أحرم من صداقتي أي رجل ممن يعيشون فيها مهما كان عرقه » •

ثم يقول :

« ان هذه البلاد بدون تجارب ، فهي لا تعد ولا تبشر• انها تكتفي بأن تعطي ، ولكن بسخاء • انها ملء العين ، ويعرفها الانسان منذ اللحظة التي فيها يتنعم بها • ليس لملذاتها دواء •• وأفراحها تبقى بلا أمل • ان ما تتطلبه هو نفوس بصيرة يا لها من بلاد فريدة ، تعطي الانسان الذي تغذيه بهاءها وتعاستها معا » •

لقد شعر كامو بتعاسة الجزائر والجزائريين ، فراح يكتب ما يشعر به في صحف الجزائر •• اذ أن الصحافة كانت بالنسبة لكامو وسيلة لخدمة الانسان• ولكن استعمال الصحافة في الجزائر لمفهوم سام كهذا ، لا يمكن الا أن تخدش مشاعر الحكومة الاستعمارية • فراح كامو وهو المراسل لصحيفة فقيرة ، يطوف في القبائل ويحل ضيفا على أصدقاء يخففون عنه مصاريفه ويسهلون له الانتقال •

ونرى في (الاخبار ٣) أجمل مقاطع كامو التي تظهر حبه الشديد للعدل ، ونفوره من كل ما يسبب الانحطاط الناتج عن البؤس والاهمال • ففي المقال الذي نشره تحت عنوان : « هؤلاء الرجال الذين يحذفون من الانسانية » كان يقصد الخمسة والخمسين منفيا جزائريا ، الذاهبين الى السجن • لما أثار فضول الحسناوات اللواتي جئن مشرقات ليحضرن في الميناء عملية نقل المسجونين، كاتبنا، كما أثارته رؤية الاقفاص الموضوعة على الرصيف والشروط القاسية التي أجري بها نقل هؤلاء المبعدين فقال : « لسنا هنا بصدد الكلام عن الشفقة ، بل عن شيء آخر •• لا يوجد مشهد أكره على النفس من رؤية رجال أوصلوا الى مرتبة أدنى من مرتبة الانسان » •

ولا غرابة اذن اذا علمنا بأن كامو كان أول صحفي طرد من الجزائر من أجل مقال نشره عن بؤس العرب••

كان كامو يحب الناس ، ويشاركهم أفراحهم وأحزانهم فعرف كيف يتفاهم مع الجميع • ولذلك أصبح على حد تعبير مورياك كضمير جيل كامل وكمنارة •• مبنية على أسس متينة ، تنشر بقوة متزايدة أشعة أمل •• أمل منبعث من ضمير حي ، وحب للعدالة ، واحترام للانسان ، وحب للحياة •

كان كامو الذي تميزه صفتان جزائريتان : مفهوم الخجل وفكرة الصداقة • صورة عن شرف الشعب • كان كل ما فيه : سلوكه ، كلامه ، هيئته ، حتى ملامح وجهه •• يضعه في مصاف هؤلاء الرجال الذين يسمون بسطاء، والذين يظهرون في بعض الاوقات وكأنهم الرجال الوحيدون • لما يتميزون به من التعهد بالدفاع ضد الظلم العام ، كما لو أنه مسألة شخصية •

واا ما أردنا أن نتكلم عن اقليمية كامو أو افريقيته ، لا بد لنا من الاعتراف بأن جزائريته ربما كانت مفتاحا من مفاتيح انسانيته •

ان لكامو تأثيرا واضحا على معظم الكتاب الجزائريين ، ذوي التعابير الفرنسية ، المنحدرين من شعوب عربية وبربرية • انهم لم يروا فيه أستاذ أدب فحسب ، بل وجدوا فيه خير مساعد على اذكاء شعورهم بأنهم يمثلون شعبا ، وانهم مسؤولون عن الجماعة الانسانية التي انحدروا منها • كما أنه كان صاحب مدرسة معظم الكتاب الاوروبيين الذين ولدوا ونشأوا في الجزائر •• وهم كثيرون •• فهم متأثرون به تأثيرا أدبيا مباشرا وغير مباشر • اذ أنهم معاصروه وأصدقاؤه •• وجميعهم يمتازون ببعض الصفات الخاصة : ككبح جماح ميولهم المندفعة ، تخفيف ميلهم الغنائي ، وعدم المغالاة •• وربما كان سبب ذلك طبيعة البلاد ذاتها : انها بلاد « سيول » حيث الافراط موجود في الجو كما هو موجود في العقول ، فيضطر الرجال أو على الاقل أفضلهم الى بذل جهد دائم للسيطرة على النفس وعلى الاشياء : من سان اوغستان حتى البير كامو ، دون أن ننسى ابن خلدون •

ولكن كيف نعلل سكوت البير كامو الذي فرضه على نفسه منذ مدة ، فيما يتعلق بالجزائر • لقد قال البعض بأن هذا السكوت هو السكوت المؤقت ، سكوت الحذر ، سكوت رجل تمزقه المتناقضات •

ولكن الآن وقد توفي ، فلنتأمل هذا السكوت ، ولنعلل معنى هذا السكوت •• انه سكوت مفروض •• سكوت رمزي •

لسنا بحاجة الى تعليل سكوت كامو ما دام هو قد فسره بوضوح حين قال : « ان الحقيقة مع الاسف ، هي أن فئة من الناس يظنون بأن العرب قد حصلوا نوعا ما على حق الذبح والتخريب ، بينما هناك فئة أخرى تقبل بمشروعية كل تعد • ومن أجل ذلك أخذت كل فئة ، كي تبرىء نفسها تستند على جريمة الفئة الاخرى ، وبما أن المشكلة هنا تتعلق بالدم ، لا يرى رجل الفكر على ما أعتقد من عمل له الا أن يحمل السلاح بنفسه •• عندما يجيب العنف العنف ، والحمى قد بلغت أشدها ، وأصبحت لغة الكلام المعقول مستحيلة • لا يمكن أن يكون دور رجال الفكر، تبرئة احدى القوتين من بعيد ، والحكم على الاخرى اذ أن لهذا العمل نتيجة مزدوجة تسخط الى درجة الجنون، الضعيف المحكوم عليه ، وتساعد المتعسف المبرأ على الاسترسال في الشدة » •

مأساة اسكندرونة

بقلم: زكي الأرسوزي

مهداة الى أبطال العرب ، الى الجزائريين الذين استشهدوا في سبيل العروبة على أرض فرنسا

كان العرب فيما مضى سادة العالم ، وكانت كلمة « العرب » في عرف الاقوام مرادفة لكلمة « شرف » حتى اذا ذكر الناس محاسن امرىء قالوا عنه : جميل كالعربي ، نبيل كالعربي .

كان سلطان أجدادنا قد امتد من سد الصين الى جبال البرنة ، وكانت طليعة جيشنا قد تقدمت حتى باريس في الغرب ، كما كان خلفاؤنا قد اخضعوا لولائنا ملوك الصين في الشرق ، وكنا اذ ننتشر على وجه الارض انما كنا نبتغي اعلاء كلمة الحق ، وهل عنت كلمة « سيادة » في نظر أجدادنا معنى آخر ؟ ألا يدل اشتقاق الكلمة من « ساد » فمن « سد » على المعني ذاك ؟ ان الرجل سيد اذا حمى حقيقة الجماعة ، مجالها الحيوي ، وان السبع أسد اذا حمى عرينه ، غابته ، أفلم يبق البحر المتوسط بحيرة عربية حقبة طويلة من الزمن لا تمخره سفينة الا باذن منا ، ولا يسمح لمسافر أن يتكلم بغير لغتنا ؟ .

نحن السباقون الى العلى ، ونحن السباقون الى المكارم، واليك كيف تراءت لاحد شعرائنا منزلة أجدادنا في الحضارة :

ورتبنا مراتب كل ملك
فكان لنا الخلائق مقتفينا
سننا للبرية كل فعل
جميل من فعال الاكرمينا
فهم يتشبهون بما فعلنا
ومن آثارنا يتتبعونا
وليسوا مدركين لنا لانا
جعلنا السابقين الاولينا

وخير دليل على فضلنا على الاقوام كلماتنا المبثوثة في لغات هذه الاقوام ، ان شأننا كأمة لم يبدأ مع رسالة محمد بن عبد الله كانت أساطيرنا محور تأملات الاقوام ، وتشهد على فضلنا على الانام أسماء الآلهة : فتاح (القاضي) عند المصريين القدامى ، ويهوا (ياهو) عند اليهود وأتينا من (اللات — آت) عند اليونان .. الخ وتشهد على فضلنا على الاقوام الحروف الابجدية وسيلة تدوين تراث الانسان ، وليس من دليل على شأننا فيما مضى أبلغ من تسمية افريقيا باسم أحد ملوكنا (افريقس في اليمن) فاتح هذه القارة ومعمرها .

ونحن لسنا أمة وسطا بمعنى الاكمل ، الاقرب الى مقومات الانسان وحسب ، ان بلادنا هي أيضا وسط بين الغرب والشرق وعلى ملتقى القارات تشرف من جهة على المحيط الاطلسي وتشرف من جهة أخرى على المحيط الهندي .

ولكن اذا كانت أرجاء العالم من تركستان الى فرنسا لم تزل تدوي بسنابك خيلنا ، واذا كان موقع موطننا في العالم يجعل منا الحكم في مصير الاقوام ، فان شأننا هذا

هذه نبذة عن كامو الكاتب الذي كان يفكر باستقامة ويعبر بطريقة انسانية يحيا الكلمات التي ملها البشر كالحرية والاخوة ، فيعطيها كل بريقها وحرارتها . وما أدل على ذلك من قوله في عالم مدجج بالسلاح تسود فيه الثقافة والبغضاء .

« أما الذين لا يزالون يفكرون بشجاعة بأن الاخ يجب أن يفنى دون المبادىء ، انني أكتفي بأن أعجب بهم من بعيد ، فأنا لست من عرقهم » .

هو السبب في تآلب الدول الكبرى منها والصغرى على الحيلولة دون نهضتنا وليس لسبب آخر توالت علينا المآسي: مأساة كليكيا ومأساة اسكندرونة .. الخ وماذا نرى لو أجلنا الطرف الى الوراء ، انكفأنا عن فرنسا وايطاليا والهند وتركستان وايران ، ومن ثم انكفأنا عن الاندلس ، وأخيرا أمست ديارنا نهبا بين الاغيار .

وبعد فأني أود أن أبدأ حديثي عن مأساة لواء اسكندرونة بعرض موجز لوجهة نظري في مشكلتين من مشاكلنا القومية ألا وهما : الجزائر وفلسطين ، فلما كنت طالبا بجامعة باريس وكان العهد قريبا من ثورة عبد الكريم الخطابي طلعت الصحف الفرنسية على العالم بهذا العنوان : كل جندي مغربي معادل لخمسة عشر جنديا فرنسيا وكانت فرنسا اذ ذاك تزهو بنشوة النصر على المانيا ، ولما اشتركت جيوش الحلفاء في موكب جنازة المارشال فوش حاز فرسان المغاربة الجائزة الاولى في العرض .

هذا ولما كانت فرنسا في حالة حرب ضد العلويين ، كان جنود المغاربة يستغفلون قوادهم الفرنسيين فيلقون الذخيرة على الارض لعل بني قومهم العلويين يلتقطونها فيحرزون على خصومهم النصر ولو كان في ذلك حتفهم .

هؤلاء هم عرب المغرب

وأما فرنسا فهاكم ملخص رأيي فيها : ذات يوم شهدت فيلما سينمائيا يعرض القتال بين جنود الالمان وبين جنود الانكلو أميركان في شوارع باريس وأثناء ذلك كان الفرنسيون يتناوقون من وراء الشبابيك ويتساءلون لمن ستكون باريس؟ بربكم بما يختلف موقف دعاة الاستعمار هؤلاء عن رعديد ينظر من وراء العنبر الى الاختلاف بين اللصوص على زوجته فيسأل نفسه حصة من منهم ستكون ربة منزله ؟

لما شهدت هذا الفيلم الفرنسي قلت في نفسي ليس عبثا أن اختار الفرنسيون شعارهم الديك فانه ان يثير بزهوه الاعجاب وان يسترع بصخبه الانتباه أثناء النهار ، فانه يبيت عند المساء وراء الدجاج حتى اذا داهم خطر ما القن اتقى بحسناواته شر الاعداء .

وكيف لا ينتصف ، والحالة هذه ، الجزائرون البواسل من خصومهم فيطهرون ديارهم من دنس الاجانب ؟ ذلك لاننا خذلناهم ، وهل من تكافؤ في العتاد بين المناضلين الجزائريين وبين الفرنسيين ؟ أين لهم اسطول فرنسا وطياراتها ودباباتها ؟ أفما كان يجب علينا أن نعلنها حربا مقدسة على فرنسا ؟ ولو أعلناها لعدنا من معركة النصر في الجزائر حاملين الى ديارنا راية العروبة راية موحدة .

ومع ذلك فاذا كان الجزائريون الذين استشهدوا على أرض فرنسا في سبيل العروبة قد تعدت روعة بطولتهم كل وصف ، فان مأساة فلسطين سيلحق عارها هذا الجيل أبد الدهر . كنت بمناسبة مماثلة لخصت رأيي في الموقف بيننا وبين اليهود بهاتين الصورتين :

« الحرب بين اليهود والعرب أشبه بمباراة في كرة القدم ، فاذا تقدم أحد الفريقين متخطيا الحد المرسوم صفر له الحكم فقفل راجعا والحكم هو بريطانيا » .

« يتساءل المرء كيف لا يقتحم العرب تخوم فلسطين فينتصفوا لانفسهم من بني اسرائيل ، كيف لا يقتحمونهم وهم يفوقونهم بالعدد أكثر من مئة مثل ؟ موقف كهذا يذكر بالفلاح العلوي وهو على الشط في السويدية حين يبدو له البحر في الافق أعلى من البر ، فتساءل كيف لا يغمر اليم اليابسة ؟ ولكن الفلاح تفتحت عبقريته أمام هذا اللغز عن فكرة استوحاها من مقام الخضر هناك وهي أن الخضر يلجم البحر بشعره من ذيل فرسه فيمنع اليم عن غزو اليابسة ، واما نحن فنقول : لو لم يلجم الحكام بعملة أم حصان التي هي الليرة الانكليزية المرسومة عليها صورة الخضر عليه السلام لتدفقت الجيوش العربية في فلسطين فغمرت الهضاب منها والوديان » .

لم تقع الحرب بين العرب واليهود وانما تمثلت رواية هزلية على أرض فلسطين ، كان ممثلوها اليهود والمتزعمين من حكام بلاد العرب ومن أدعياء العروبة واما ملقن الرواية فقد كان الاستعمار .

كانت بريطانيا قد قر رأيها على اعادة مهمتها في الانتداب على فلسطين ، الى الامم المتحدة وريثة عصبة الامم التي كانت قد أوكلت اليها القيام بمهمة الانتداب ولئلا يؤدي ذلك الى اقامة دولة عربية استعانت بعملائها المسؤولين عن الامور العامة في البلاد العربيـة ، على تحقيق وعد كانت قطعته لليهود بجعل فلسطين موطنا لبني اسرائيل •

قام العملاء بالمؤامراة وكان عرب فلسطين الضحية ، زجت الحكومـات العربية في المعركـة جيوشا متطوعـة وزجتها تحت قيادة أجنبية ، وكـان الغرض من المهزلـة اظهار العرب عاجزين عن مقاومة الافاقين اليهود بقدر ما كان الغرض منها اقامة دولـة اسرائيل ، وكيف بقـوم ليسوا على مقياس بني اسرائيل ان يؤسسوا دولة يمتـد سلطانها من المحيط الهندي الى المحيط الاطلسي ؟ •

مهد الخونة للمؤامرة باقناعهم عرب فلسطين بالخروج موقتا من ديارهم ، وأتموا مؤامرتهم فيما بعد عندما أوفدوا اليهود المبعثرين هنا وهناك في البلاد العربية الى فلسطين •

ولكن فات الانكليز ان اقامـة دولـة اسرائيل في قلب البلاد العربية عمل أخرق لا يصمد أمام مجرى التاريخ ، هاكم مثالا كعبرة تناقش على ضوئه مستقبل هذا القطر العزيز على قلوبنا •

لما قام هتلر أثناء الحرب العالمية الماضية بمقابلة رئيس الجمهورية التركية على حدود بلغاريا دفع الخوف باليهود الى مغادرة أرض الميعـاد ، وكنـا نشاهد ونحن ببغـداد قوافل السيارات تنقـل الافاقين عبر العراق ، فاذا كـان الالمان وهم على حدود بلغاريا قد سببوا ترك اليهود أرض الميعاد فكيف بنا ونحن نحيط باسرائيل من جميع الجهات وفينا غريزة القتال أشد مما هي عند الالمان •

ولـكن الامر يتوقف على اقناع اليهود باننا لـم نعـد مطية للاستعمار ، ونحن نقنعهم بذلك اذا أصبح الفلاح في اللاذقية قادرا على بيع قفة تفاحـه في الاسكندريـة في نفس الشروط التي يبيعهـا في مدينـة حمص مثلا ، أي عندما نستكمل كيان جمهوريتنا ، فلما قامت الجمهورية العربية المتحدة قلت أن كل دولة اعترفت بقيامها اعترفت ضمنا بخضوع مصير الدول الواقعة في القوس الذي حصل من التقاء مصر وسوريا ، لمصيرنا •

وأما مأساة اسكندرونة فهاكم كلمتين احداهما لمدرس والاخرى لقائد يلخص بهما هـذان الفرنسيان وجهـة نظر دولتهما فيها : قال المدرس لتلاميذه العرب في الصف أن الاتفاقية بين فرنسا وتركيا عـلى سوريا قبر دفنا فيـه حلم الامبراطوريـة العربية ، وقال القائـد : ان وجود تركيا قوية على حدود البلاد العربية ليخفف من حماس العرب وليعرقل تطورهم •

هكذا كانت قضية اللواء قضية عربية ، وما ظهرت الا لتدرأ خطر العروبة عن فرنسا وتركيا فتركيا دولة متاخمة لنا فهي منا ، اذا استكملنا شروط نهضتنا ، بمثابة احدى الـدول الصغيرة التي تتاخـم ألمانيا أو روسيا مصيرها أن تكون في فلك غيرها •

وأما فرنسا فتعوض عـن أبنائها المتخاذلين في الدفـاع عن حدودها بعرب المغرب لتحمي كيانها وهي تنظر الى يقظتنا بعينين مغشاتين بذكريـات أجدادنـا ، بذكريـات جحافل خيولنا اذ كانت تجول وتصول في ديارها •

هكذا اتفقت فرنسا وتركيا على الحيلولة دون عودتنا الى مسرح التاريخ دولة عظيمة تنكسفان في ظلها • والعرب على مـا هم اليوم أشبـه بـ « مارد في قمقم » يتصرف في مصيره الطفل ما دام في معقله ، ولـكن اذا انطلق المارد من حبسه شهد الناس تحولا في مجرى تاريـخ العالم ، ولطالما لم ينبت ريش الفرخ تتغلب عليـه فيران الجيران ولو كان فرخ نسر ، ولـكن اذا استـكمل فـرخ النسر شروط نموه أصبح على مقدرة من أن ينقض على الذئب ويفترسه •

أود أن أنتقل بـكم ، أيها الرفاق ، الى أنطاكية وأن نتمثل أنا واياكم ربوعها وسماءها ياله مـن مشهد بهيـج يثير شعورا مزيجا من الجمال والروعة ، ها هي أرض متموجة تفصل هضابها الوديان ، يحيط بكل من جانبيها سلاسل من جبال عالية ويتوسطها نهر العاصي متهاديا في سيره معرجا بين المنعطفات تكلل ضفتيه أشجار الصفصاف

والجداول المنبثقة مياهها من كلتا السلسلتين تنساب بين الروابي لتلتقي بنهر العاصي ، جداول تضفي على الوديان حلة من الجنان ، وأما السماء فتبدو في ظل الجبال كأنها قوس قزح تناثرت ألوانه في الاجواء ، ياله من مشهد خارت قواي ، في عهد الصبا ، أمام روعته فسقطت مغميا من شدة الوجد .

وكذلك اليونان فانو العهود القديمة وقفوا مدهوشين أمام ربوع انطاكية الجميلة فاتخذوا من هذه الارض الجميلة مقرا لالهة الجمال (حربية كلمة يونانية تعني اللذة . راجع اسطورة دفنه) .

ونحن عندما هجرنا انطاكية ، أثناء دخول الجيش التركي اليها ، ودعنا شعبا يفوق بروعته جمال الطبيعة ، وهاكم شهادة أعضاء اللجنة الدولية في موقف عرب اللواء من قضيتهم القومية :

« ما من عاصمة من عواصم أوربا تستطيع في شروط مماثلة ، أن تقوم بثلث ما قام به عرب اللواء من تضحيات في سبيل قضيتهم مما يجعلنا ننحني ، نحن ممثلي عصبة الامم ، اجلالا لاعمالهم وبطولاتهم » .

وهاكم بعض الحوادث التي تكشف عن مدى عمق الانقلاب في الحياة العامة ، كان للتجربة الانسانية في لواء اسكندرونة مغزى هو ظهور حياة جديدة من تحت أنقاض التقاليد البالية وكانت العروبة هي صوت هذه الحياة ، الصوت الذي دوت به أرجاء المنطقة ، كانت النفوس تردد صدى هذا الصوت فينادون بعضهم لبعض هيا بنا نقيم عالما تسوده الاخاء والحرية (قنابر ارتفعت في الآفاق تستقبل ربة النهار فتزف الى الاحياء بشارة يوم جديد) تحول الناس بهذه الولادة من رعاع تتقاذفهم الاغيار الى أبطال عاقدي العزم على اقامة دولة عربية يحمل التاريخ الى الاجيال مآثرها ومناقبها .

وها نحن نعيد هنا بعضا من الامثلة التي تكشف عن الانقلاب الذي حدث في هذه الزاوية من بلادنا . « كانت سيدة عربية قد قامت بزيارة لاسرة فرنسية ولما قدمت ربة البيت لضيفتها القهوة امتنعت هذه معتذرة ببعض المعذرة ، ثم أنها همست باذن ترجمانها الذي كان ابنها يابني نحن لا نشرب بآنية هؤلاء لانهم يأكلون حيوانات نجسة ، ولكن هذه العربية بعد مضي عشر سنوات على الحادث وكان الشعور القومي قد بزغ في انطاكية قالت لابنها اذ سمعته يلفظ كلمة مسيحي ـ لا يابني ، من العيب بعد الآن ان نستعمل كلمات : مسلم مسيحي ، أفلسنا جميعنا عربا وما ذنب المسيحيين اذا اتبعوا عيسى ابن مريم ، وقد جاء مبشرا قبل محمد ، أو ليس محمد والمسيح من ذرية ابراهيم الخليل ؟ » .

هكذا كان الشعور القومي المستيقظ من الاعماق يسوق الآراء في الوجهة التي يسوغ بها كيانه . « وفي ذات يوم كنت مارا بشارع من شوارع انطاكية ، واذا ببعض الصبايا المسيحيات ، متجمهرات أمام منزل احداهن يقول بعضهن لبعض ان النبي محمدا من جنسنا من دمنا ، فهو أقرب الينا من الآخرين ، يجب علينا أن نقوم غدا بتنظيم حفلة ميلاده ، وفي الحقيقة لم يخلفن وعدا في اليوم التالي » .

هكذا كان الشعور القومي المستيقظ في النفوس يفصح عن ذاته متجسدا ببطل العرب محمد كان الشعور القومي المستيقظ يظهر كحافز يحفز النساء والرجال ، الاطفال والشيوخ ، العمال والمتعلمين الى تشييد دولة عربية ذات شأن في مصير العالم ، وهاك بعضا من تلك المظاهر :

« كان قروي بشارع من شوارع اسكندرونة ولما رأى هذا القروي معالم الزينة التي كانت تقام بالبلدة عام ٩٣٦ سأل المارة عن مغزى الزينة ، قيل أن سوريا قد حصلت على تصريح بالاستقلال فأجاب القروي على القول : لا يحق لنا أن نقيم الاعياد مالم نجتمع كلنا جميعا تحت راية العروبة .

هكذا كان حلم الوحدة العربية متملكا من نفوس عمال وفلاحي اللواء .

كان للعروبة شهداؤها ، كما هي حالة المؤمنين بكل عقيدة .

« فتى عربي لم يتجاوز الرابعة عشر من العمر تسلق شباك الباب ، أثناء هجوم الجمهور على دار الحكومة من

أجل اخراجي من السجن ، واذا كان هذا الفتى يصعد نحو القمة تلقى بعض الطلقات النارية التي مزقت أحشائه ولكنه مع ذلك ظل مستمرا في صعوده وهو ممسك بيده أحشائه الممزقة حتى رمى بنفسه الى الجانب الآخر من الباب ، ثم نهض نهوض نسر مجروح وفتح الباب للجمهور ثم سقط مغميا على الارض وكانت شهامة الاب تضاهي بطولة الابن فلما قيل له أن لا يبتعد عن غرفة العمليات لان ابنه في خطر فقد يفارق الحياة وهو تحت العملية ، فأجاب الاب : ليس من المهم مصيره وانما المهم مصير العروبة ، مصير الاستاذ .

ولم تكن البطولة في اللواء وقفا على الافراد ، فقد قام الجمهور أيضا بأعمال تعز على الوصف فلما أذنت الساعة الحاسمة استيقظت الغريزة القومية من الاعماق ، في تلك الساعة لم يجرؤ أحد على الخروج على ارادة الامة الا سبعة أنفار ممن كانت تركيا قد اتخذتهم واسطة في توزيع المال فتجعل منهم مسؤولين عن الآخرين ولما شاع الخبر المشؤوم بين الناس اقسمت زوجات هؤلاء البؤساء اليمين على الطلاق وقرر الاولاد ان يغسلوا العار بدماء المارقين، موقف الابناء والامهات هذا قد أهاب بالشذاذ فدفع بهم الى الاسترحام من اللجنة الدولية والطلب باعادة النظر في أمر التسجيل والتمسوا بأن يسجلوا مع بني قومهم عربا والا سينتحرون .

هكذا أصبحت العروبة التي بزغت في الافق نبراسا للعرب أجمعين .

وأما المؤامراة فقد تمت على الوجه الآتي :

لما ظهر خطر المانيا النازية في أفق السياسة الدولية ، أخذت فرنسا بتصفية مشاكلها استعدادا لمجابهة الخطر ، خافت الدولة المنتدبة على سوريا ولبنان من أن تعجز ،اذا وقعت الحرب بينها وبين ألمانيا ، عن الصمود أمام أعدائها في الجبهة الاوروبية فيقتنص العرب فرصة انهيارها فينقضون على فلولها في الشرق الادنى . ودرءاً لهذا الخطر ، خطر قيام ثورة في سوريا أو خطر احتلال عسكري لهذا القطر من قبل دولة عربية مجاورة شرعت فرنسة في توثيق عرى التحالف بينها وبين تركيا . وكان عربون الاتفاق بينهما على العرب هو لواء اسكندرونة .

لما عقدت فرنسا مع تركيا معاهدة أنقرة عام ١٩٢١ ، الحق بالمعاهدة ذيل يتضمن الوعد بتسليم اللواء الى تركيا في ظروف دولية مؤاتية، وها قد جاء الظرف المؤاتي وهو استعداد المانيا النازية لحرب تنتقم بها من اعدائها فتعوض على الالمان ما قد خسروه في حربهم ضد فرنسا عام ١٩١٨ .

ولكن كيف تستطيع فرنسة وهي منتدبة على سوريا من قبل عصبة الامم أن تتخلى لتركيا عن جزء من الاراضي الموكولة بها اليها ؟ وهل يكتسب الاتراك حقا مشروعا في اقليم تحت وصاية عصبة الامم دون رأي صاحبة الحق في الوصاية عليه ؟ وكان هذا رأي ليون بلوم رئيس وزراء فرنسة في المسألة من وجهة النظر القانونية .

وتمهيدا لحل المشكلة بالطرق المشروعة أي تمهيدا لاجراء استفتاء في اللواء أثيرت اضطرابات سنة ١٩٣٦ في سوريا ، تظاهر الفرنسيون باذعان لمطالب السوريين بالاستقلال وأوحى الى الوفد السوري المفاوض بأن مرجع الحل هو جنيف ، على أن تكون أنقرة الطريق المؤدي اليها ومنها الى باريس اشترط الفرنسيون على الوفد السوري شرطا أساسيا لحل المشكلة السورية هو قبول العهد الذي كانت قطعته فرنسا لتركيا وقبل الوفد السوري بالشرط أي بالتخلي عن لواء اسكندرونة لتركيا بنتيجة استفتاء تحت اشراف عصبة الامم وجرى لاعضاء الوفد السوري وهم في طريقهم الى جنيف مقابلة مع رئيس الدولة التركية مصطفى كمال وحضر المقابلة سفير فرنسا بأنقرة السيد بوتسو ، وكان من نتيجة المقابلة أن اتفقت فرنسا وتركيا على اخراج أربعين نائبا عن اللواء منهم اثنان وعشرون من الاتراك ، وثمانية عشر عن الطوائف المختلفة ، وهكذا اتخذ الوفد السوري المفاوض مطية لتنفيذ الاتفاق على العرب .

ولكن عرب اللواء خيبوا آمال فرنسا وتركيا وأدعياء الوطنية من حكام ومتزعمين وفوجيء العالم اذ ذاك بوطنية لم يشهد لها التاريخ مثيلا ، جرى الاستفتاء في شروط غير متكافئة : كانت تركيا وفرنسا تظاهران الاتراك في اللواء بينما كان العرب في سوريا وفي الاقطار العربية

الاخرى يدورون في فلك الحلفاء .

ولما لم ينجح الاتراك في الاستفتاء ، أوقفت عمليات التسجيل وأبلغت اللجنة الدولية وجوب مغادرة البلاد ، وعندئذ قام الفرنسيون بموجة من الارهاب ، تمهيدا لاحتلال اللواء عسكريا من قبل الاتراك .

هكذا اضطر عرب اللواء فرنسا الى أن تكشف القناع عن حقيقتها فتعلن على لسان مندوبها (غارو) ومدير استخباراتها الكولونيل (بونو) أنها على اتفاق سابق مع تركيا وان الاتفاق عزيز عليها الى حد أنها تدوس في سبيله جميع المقدسات الانسانية .

ان عرب اللواء لم يثبتوا ببسالتهم وتضامنهم حق العرب في اللواء فحسب ، بل انهم لم يتركوا لفرنسا مجال الادعاء بأنها تذعن للحق فتراعي تقاليدها فتسلم اللواء للاتراك .

وأمامشكلة اللواء فلها طريقان في الحل أولهما الطريق القانونية ، كان اللواء جزءا من سوريا وكانت سوريا تحت وصاية عصبة الامم ، ولما كانت العصبة قد أجرت استفتاء تحت اشراف لجنة هي عينت أعضائها ولما كانت اللجنة التي أشرفت على الاستفتاء قد أعلنت عن توقيف الاستفتاء نظرا لتدخل الاتراك بالقوة معتدين بذلك على القوانين الموضوعة من قبل العصبة ، فقد أصبح أمر الحاق اللواء بتركيا أمرا تعسفيا غير مشروع ، ولما كانت الامم المتحدة اليوم وريثة عصبة الامم ، فقد أصبح من المشروع اعادة اللواء الى وطن الام سوريا (أي الجمهورية العربية المتحدة) .

وأما الطريقة الثانية فهي أن نستكمل شروط كياننا بانشاء دولة عربية تضم تحت رايتها العرب أجمعين وعندئذ نحل المشاكل المتعلقة بيننا وبين الجيران بمقتضى الحق والعدالة .

وفي الختام أتوجه اليكم ، أيها الرفاق ، بملخص خبرتي وتأملاتي ، ان قيمة الحياة بأغراضها ، لا بعدد سنيها . فالغرض النبيل يضفي على الميول والغرائز رواءه فيجعلها ذات رونق وبهاء ، ان المرء ينشيء سمته بأعماله ، فاذا كانت نبيلة تجمل بها والا خس وتدنى . الاغراض هي مثار القوى الكامنة في الحياة والحافز لها ، وعلى قدر ما تكون الامنية فسيحة تزداد الهمة ، حتى لكأن العلاقة بين رفعة الامنية وعمق النزوات علاقة أصيلة في طبيعة الحياة ، مثلها كمثل شلال تتناسب شدة انحداره مع درجة ارتفاعه وقد أشار الى الحقيقة المذكورة شاعرنا المتنبي بقوله :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتكبر في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين العظيم العظائم

ولكن الغرض يزداد وقعه في النفس حين يتعاون الناس على تحقيقه كأمنية مشتركة ، وتعبيرا عن هذا المعنى قيل: ان الحياة كالنار تشتد ذكوتها مع مدى انتشارها والفكرة وهي مظهر للحياة تشتد في النفس بتجاوب صداها عند الآخرين ، مثلها بذلك كمثل وهج اللهب باشتداده مع اتساع دائرة الوقود وأي أمنية ، بالنسبة الينا كعرب ، تمد الخيال بالخصب والفسحة كأمنية جمع شمل بني قومنا تحت راية العروبة فاذا سرح أحدنا النظر على مر الزمان رأى تاريخ أجداده يرتقي الى أصول البشر ، ولغتنا تشهد على أن العروبة والانسانية صنوان .

واذا هو سرح النظر في المكان رأى موطن أجداده من العالم بمثابة القلب من الجسد ، وفي أي هدف تلتقي أماني العرب كما تلتقي في استقلال مصيرهم عن كل دخيل ؟ على الاستقلال بالمصير يتوقف انطلاق الخيال وازدهار الشخصية ، وأي مشكلة من مشاكل الحياة لا يمت حلها بصلة الى الاستقلال والحرية ان الحرية من النفوذ الاجنبي كالشمس من المكروب لا تعيث الحشرات الا في العتمة .

واذا ما أصبحت الامنية العامة مثلا أعلى ، اليها صبت النفوس وبها ارتبطت مظاهر الحياة وعلى تحقيقها بنيت الآمال ، واذا تجاوبت النفوس فاشتد فيها الولع لتحقيق الامنية المشتركة كرسالة ، اذا ما تم ذلك تحول الناس الى أبطال يقبلون على جلائل الامور متحدين الموت .

أسطورة كمان

بقلم : مطاع صفدي

كانت نظراته تتحطم على صفحة الزجاج،هذا الجدار الشفاف البارد. خلف الزجاج كانت أشياء كثيرة ممددة بموت نهائي .

تماثيل لاناس غير أحياء أبدا ، وملابس لاحياءلم توجد بعد.وربطات عنق ، وألوان من الصناعة الناعمة المترفة.

كانت بضائع نسائية منسقة خلف هذه الواجهة المضيئة . ومع ذلك أحس الموسيقي الناشيء أنه أمام قبر فخم ، مضيء ، لهذه العلبة من الخشب الاشقر الخجول.

كانت كمان ، حية لوحدها ، بين الاشياء الممددة خلف الجدار الزجاجي البارد . وكل شيء محنط ملون وراءه ، غالي الثمن ، مستحيل .

ويبكي الموسيقي الناشيء على كمانه القديمة. وتختلط أصوات النشاز من خشبها المتداعي ، بنشيج الموسيقى ، ولكن شد ما كانت دهشته ، عندما استمع الى نشيجه ، وقد أصبح شبه لحن ، يصدر من أعماق الكمان ، لا من حنجرته هو . كان صدر الكمان لصق عنقه وأعلى صدره . وقد رن الخشب القديم بصدى النشيج من الصدر ، قبل أن تستطيع نقله الانامل المبتدئة النحيلة الى الاوتار الباردة .

وفي كل مساء . يرجع الموسيقي الناشيء الى الواجهة. ويقضي لحظات أمام القبر الفضي الباهر ، وفي أعماقه ترقد كمانه اللامعة المستحيلة .

وهو شاب صغير . ولا بد له أن يرى صديقته على الطريق بين الواجهة في الشارع المزدحم ، وبين بيته في الحي المهترىء ، وقبل أن يودع شوارع المدينة المزدهرة، المرتعشة بالصخب واللون القاسي والضوء الصارخ ، لا بد له كذلك من أن يمر ببيتها .. انه يقع على عتبة الأحياء القديمة ، وفي ابتداء الشوارع الصاخبة .

هناك ينظر الى نافذتها ، ويحس بدفء شبحها وراء الزجاج .

هناك .. هي شيء وحيد حي ، بين أشياء أخرى ، في البيت المترف ، ممدودة بموت نهائي .

هناك هي شيء مستحيل ..

* * *

وحدثت المعجزة.عندما نجح في نيل شهادة البكالوريا. وباعت امه آخر حلية لها . واشترت له الكمان .

دخل غرفته الكئيبة ، ذات الاثاث القليل البالي . وضع كمانه الجديدة على المنضدة . وعم بريقها الاخاذ جو الغرفة الداكن . وقف ذاهلا تلقاءه قبل أن يمد يده الى علبتها .

وبقيت كمانه القديمة مقذوفا بها الى السرير . ولم تكن لها علبة في يوم من الايام .

فتح العلبة . استل القوس . حشر الكمان الجديدة بين عنقه وأعلى صدره .. ولمس الاوتار بأنعم لحن .

كان ذاك لحنه الجديد لها .. ألفه منذ أن وقعت عيناه عليها خلف الواجهة من سنتين . وأبى أن يعزفه على كمانه القديمة .

وفي غمرة نشوته ، سمع صوت شدخ مؤلم ، حطم انسجام اللحن في أذنه . رمى بالقوس . فحص الكمان لاهثا ، الا انه لم يعثر على الشدخ .

والتفت الى كمانه القديمة ، فاذا بالشدخ قد شط صدرها بشق عميق طويل .

لم تسمع امه تلك الليلة شيئا من الصخب يصعد من غرفته .

كان الموسيقي الناشيء يشرد في الشوارع . وعندما وقف أخيرا على عتبة الاحياء القديمة ونظر الى نافذة صديقه ، كان الزجاج يشف عن ظلمة خرساء .

واختفى الشيء الوحيد الحي..ولقد رجع مستحيلا.

الحلم .. أو حياة لوسيان

بقلم : سعد صائب

« أعد الاستاذ سعد صائب كتابا عن الكاتب الساخر « لوسيان » صور فيه حياة هذا الكاتب المولود في القرن الثاني للميلاد في مدينة «سميساط» على نهر الفرات واختار نماذج حية من محاوراته التي اشتهر بها والتي يهاجم فيها الفلاسفة اليونانيين الذين سبقوه ، ويسخر من العادات والتقاليد والآلهة التي كانت شائعة في العهدين الاغريقي والروماني . وقد اجتزأنا من كتاب الاستاذ صائب هذا الفصل الذي يروي فيه « لوسيان » عن نفسه ، ويصور نشاته واحترافه الادب تصويرا فيه متعة وفيه سحر » . (الثقافة)

١ ـ ما كدت أغادر المدرسة وأنا في فوعة الشباب ، حتى عقد أبي مجلسا ضم أصدقاءه ، للتداول في أمر الحرفة التي يجب أن أتعلمها ، وكان رأي معظمهم أن حرفة الادب تتطلب جهدا كبيرا ، ووقتا طويلا ، ناهيك عن نفقات باهظة ، ومال لبد ، ليس في قدرة ثروتنا تحملها اذ كانت زهيدة تحتاج لغوث عاجل . أما ما سوى ذلك فلو أني بدأت بتعلم احدى الحرف اليدوية التي يحترفونها فستدر علي عاجلا مالا يكفيني فلا أظل ـ وأنا في هذه السن ـ عبئا ينوء به كاهل أبي ، وبوسعي ـ في النهاية ـ وقبل مضي زمن طويل أن أسعد قلبه اذ أمنحه تباعا ما سوف أجنيه .

٢ ـ وثمة قضية ثانية طرحت على بساط البحث ، وهي اختيار الحرفة التي يجب أن أتعلمها ، شريطة أن تكون من خير الحرف وأسهلها في آن معا ، والتي تواتي امرءا حرا وتستلزم لتأسيسها نفقات قليلة ، وتدر ربحا ثابتا .

وبينا كان لفيف يمتدح حرفة من الحرف ، ويحبب لفيف آخر حرفة سواها وفق أمياله أو تجربته ، التفت أبي الى خالي ، وقد كان في المجلس ـ وهو نحات بارع ويعتبر من أشهر الفنانين في نحت المرمر ـ قائلا له : « ليس من حقنا وأنت بيننا تفضيل حرفة أيا كان نوعها ، فخذه اذن ـ مشيرا الي ـ حتى اذا ما أمسى لديك ، علمه ليغدو نحاتا ماهرا ، يضع كل شيء في نصابه ، وليصبح مثالا حاذقا ، وتلك لعمري حرفة في مقدوره النجاح فيها لما له من براعة فطرية تعرفها فيه » .

وأخال أن ما حدا أبي للاعتقاد بذلك ، أنني كنت ألهو بالشمع فآخذه ـ غب مغادرتي المدرسة ـ وأعطيه شكل البقر والخيل بل وشكل الرجال أيضا ، وكان النجاح ـ على رأي أبي ـ حليفي في محاكاتها . ويبدو أن ما كان من قبل مثار اعتراض أساتذتي أمسى اليوم مبعث مديح يزجي لاميالي السعيدة ، وغدا معقد آمال حلوة ، اذ خالوا بعد أن لمسوا مواهبي في تلك النماذج ، أنني سأحذق هذه الحرفة في برهة وجيزة .

٣ ـ واذ قرروا أن قد حان الوقت للبدء بتمريني ، وأسلموني الى خالي ، لم أكن لعمري غاضبا من عملي ، بل كان يبدو لي أنه على خلاف ما تصورت سيكون بالنسبة لي مبعث سلوى فاتنة ساحرة ، وسأظهر حذقي اما لقيني رفاقي ، وأنحت لي وللخلص منهم آلهة ، وأصنع لي ولهم تماثيل صغيرة . بيد أن ما وقع لي في البداية قد يقع عادة للبادئين ، فقد سلمني خالي ازميلا ورغب الي أن أنحت في هدوء قطعة من مرمر كانت في معمله مبتدرا أياي بالقول المألوف : « ان الشيء الذي تبدأ بصنعه قد أنجز نصفه » بيد أنني نظرا لقلة خبرتي أهويت بضربة قوية جدا على القطعة فتحطمت ، مما أثار غضب خالي وحنقه ، فتناول عصا كانت هناك وراح ينسأني بها ليعلمني فنه على أسلوبه الذي لم يكن البتة لطيفا ولا مشجعا . وهكذا بدأت الحرفة بذرف الدموع .

٤ ـ عندها وليت الادبار من المعمل وأخذت سمتي الى البيت ، والدموع تنهمر من عيني وقد امتلأتا بها ، فقصصت على أمي قصة العصا وأنا أبدي لها آثارها ، وشكوت قسوة خالي التي جاوزت حدها ، مردفا أنه لم يأخذني هذا المأخذ الا عن غيرة فيه وحسد ، والا عن خشية من أن أبزه في فنه ، مما أثار غضبها فراحت تؤنب في حنق وغيظ أخاها شر تأنيب ، وما أن جن الليل حتى

أسلمت عيني للكرى بعد أن فاضتا بالدمع ولم أبرح أحلم بالعصا ٠

٥ – الى هنا وقصتي مضحكة سخيفة ، أما ما سأقصه عليكم بعد الآن يا رفاقي فشيء لن تعافه نفوسكم ويستلزم منكم أن ترهفوا الي أسماعكم ٠٠ ولكي أروي قصتي كما يروي « هوميروس » أقول : « لقد بان لي وأنا نائم حلم الهي في ليلة الهية » ٠ انه لحلم واضح بين لا أخاله يجاوز الحقيقة ، ولئن مضى عليه زمن طويل فان أشكال الاطياف التي تبدت لي لم تبرح ماثلة أمام عيني ، ولم يزل رنين حديثها يتجاوب في مسمعي ، لما في الحلم من وضوح ٠

٦ – أمسكت يدي امرأتان وراحت كل منهما تجذبني اليها في قوة وعنف ، حتى أوشكتا – وهما تتصارعان – أن تفصلا ذراعي ٠ وبينا كانت احداهما تشدني وتكاد تجذبني اليها ، كنت أعود ثانية الى سلطة الثانية ٠ وكانتا تتشاحنان في صخب فتقول الاولى : « أريده ، انه لي » وتبادرها الثانية : « انك لتدعين عبثا ما ليس لك » ٠ كانت الاولى عاملة جريئة ذات شعر أشعث أغبر ، امتلأت يداها بالبثور ، وتمنطقت بحزام ، وقد تغشاها غبار المرمر ، فكأنها تشبه خالي الذي كان ينقر أحجاره ٠ وكانت الثانية ذات وسامة وقسامة وقد أهيف نبيل ، ترتدي معطفا لائقا ٠ ولم تريا بدا من أن تسلما أمرهما الي لأقضي في أيهما أرغب أن أغدو مريدها ، فشرعت في الكلام من كان مرآها جافا جريئا :

٧ – « اي بني العزيز ، أنا فن النحت الذي تلقيت بالامس أول درس من دروسه ، أنا صديقة أهلك وقريبتهم « ذكرت اسم أبي » وقد كان جدك مثالا ، ونال خالاك بفضلي شهرة عظيمة ، فان رمت ألا تعبأ بثرثرة هذه ولغوها « مشيرة الى الثانية » وان رضيت بأن تقفو أثري وتنقطع الي فستحظى – في البدء – بتربية فيها حزم وعزم شديدين ، وستغدو قوي الساعدين ، ولن تبالي بأي ضرب من ضروب الحسد أو الغيرة ، ولن تعاف وطنك وأهلك لتمضي الى بلاد غريبة ، ولن يثني عليك الناس من أجل خطبك ، واحذر يا بني أن تنفر من هيئتي الزرية ، وثوبي المعفر ، فما صنع « فيدياس » الشهير تمثال « زيوس » ولا سوى « بوليكليت » تمثال« حيرا » ولا حظي « ميرون » بالهتاف ، ولا نال « براكسيتيل » الاعجاب الا لانهم بدوا كما أبدو لك ، ولقد عبد هؤلاء الفنانون كما عبدت آلهتهم فان أنت أخذت مطرحك بينهم فمن ذا يخامره شك في أن تغدو شهيرا في العالم أجمع؟ فتجعل من أبيك رجلا محسودا، وتجعل من وطنك وطنا شهيرا ؟ » ٠

٨ – وفاه النحات بهذه الكلمات وبكثير سواها، وذكر في صوت أجش يخدش السمع ضروبا من الجمل والالفاظ ، وكانت كلماته تتلاحق في سرعة الواحدة تلو الاخرى كأنه أحد البرابرة ، وقد بذل لاقناعي جهدا ليس باليسير ، ولم أعد أذكر ما قاله اذ غاب عن ذهني معظمه ٠ وما أن انتهت حتى شرعت الثانية تتكلم على النحو التالي تقريبا:

٩ – « أنا يا بني المعارف ٠٠ ولعلك عرفتني وألفتني بالرغم من أنك لم تمارسني حتى النهاية ٠٠ ترى أي خير تجنيه ان أنت أمسيت نحاتا كما نوهت بذلك هذه المرأة ؟ انك لن تغدو في الحقيقة غير صانع تعمل بيديك معلقا عليهما آمال وجودك كله ، وتمسي أنت ذاتك مجهولا ، مرغما على الاكتفاء بأجر حقير ذليل ، كما تغدو تافه الفكر، لا تلفت اليك الانظار في غدواتك وروحاتك ، ولن تغدو محسودا من اخوانك ، بل ستظل عاملا بسيطا تلبي دعوة الداعي ، وانسانا ضالا بين الدهماء ، تعروك الرجفة أمام العظماء ، وتتملق من يجيد الحديث ، وتحيا حياة الارانب كفريسة ينشدها أهل الحول والطول ٠ وان أنت أمسيت ك « فيداس » أو « بوليكليت » وقمت بضروب من الاعمال العجيبة فلست أنت الذي تمتدح بل فنك ذاته ، وليس ثمة من يرى روائعك يتمنى – ان فهمها – التشبه بك، لان مكانتك مهما سمت فلن يرى الناس فيك غير عامل صانع يعيش من كد يديه ٠

١٠ – أما ما يغاير ذلك ، فان أنت وعيت كلامي وتدبرته ، فسأطلعك –في البداية– على ضروب من الاشياء عن الرجال الذين غبروا ، وسأقص عليك ما أبدعوا من عجائب ، وعما فاهوا به من روائع ، فأجعل منك عالما تكاد تطبق شهرته الآفاق ٠ وسأجمل كذلك ذاتك –وهي الجزء السامي منك– بضروب من الاشياء الجميلة ، كالاعتدال ، والعدالة ، والتقوى ، والطرافة ، والانصاف ، وحب الجميل ونشدان المثل الاعلى ، وهي الزينة الحقة الصافية للنفس ، ولن يغيب عنك شيء مما أبدع في الماضي ، وما يجب أن يبدع في الحاضر ٠ وحين تمسي معي فستتنبأ حتى بالمستقبل ، وبكلمة موجزة سأعلمك عما قليل ما هو موجود من أشياء الهية ، وأشياء انسانية ٠

١١ – ان هذا الفقير ابن الاب النكرة الذي قرر فيما سلف أن يحترف حرفة حقيرة جدا سيغدو وشيكا مجال تنافس وحسد من الناس كافة ، وسيمسي محترما ممدوحا ومعروفا بأجمل الخصال ، يعجب به جميع من امتازوا بنبلهم وثرائهم ، وسيرتدي رداء كهذا « تشير الى ردائها الذي كان براقا زاهيا » ويعترف بجدارته للحكم ويتبوأ المركز الرفيع ٠ وحين تجوب حتى البلاد الغريبة فلن تغدو مجهولا مهملا وسأضع على مفرقك علامات براقة حتى أن كل من يراك يكز جاره مشيرا اليك باصبعه هاتفا : « هو ذا » ٠

١٢ – واما بغت أصدقاءك أو حتى الحكومة حدث هام ، فستصوب اليك الانظار كلها ، واما صادف أن

تحدثت فان الشعب سيصيخ اليك بسمعه فاغرا فاه وقد امتلأ اعجابا بقوة خطبك ، عندها يهنأ والدك بأنه أنجبك ٠

أما ما يحكى عن بعض الرجال ممن أمسوا خالدين ، فسأجعلك مخلدا مثلهم ، لانك حتى ولو لقيت حتفك فستظل حيا مع المثقفين ، وتتحدث مع الفلاسفة ٠

هاك « ديموستين » الشهير من ترى كان أبوه ؟ وأي رجل عظيم جعلت منه ؟ وهاك « اسكين » ابن ضاربة الطبل ، أرأيت كيف كرمه من أجلي « فيليب » ؟ ان « سقراط » الذي ربته المثالة ما كاد يعلم أن عليه أن يبدع أروع مما تعلمه منها ، حتى لاذ بالفرار وهرع الي ، ولعله بلغك كيف أنه غدا ذائع الصيت في العالم أجمع ٠

١٣ ـ فان أنت تخليت عن هؤلاء الرجال ذوي القدر والفضل الذي لا يقارن ، وان أنت جفوت أعمالهم الزاهية ، وخطبهم المحترمة ، وان أنت أعرضت عن اللباس الوقور ، والالقاب والمجد والثناء ، ولم تبال بالتبريز والحكم والقيادة ، وشهرة الخطيب ، ولم تحفل بالهتاف الواجب للعبقري ٠ فلن تحظى الا بثوب زري قذر ترتديه وتبدو فيه كالعبد ، فتمسك بيدك الازميل ثم تحني الهام على عملك ، وتميل وتنحني الى الارض ذليلا مطأطىء الرأس دوما ، غريبا عن كل فكر حر جريء ، لا تحلم الا بأعمالك اليدوية كيما تمنحها التناسق والطلاوة ، في حين أنك لن تغدو أنت ذاتك متناسقا ظريفا ، لانك لن تحفل البتة بذلك ، بل ستعود أقل قيمة من الحجارة ٠

١٤ ـ ما انفكت تسوق الحديث حتى قمت قبل أن تتمه ، فقضيت بينهما ، وأعرضت عن تلك العاملة الدميمة وأخذت سمتي نحو المعارف ، وقد استحوذ علي السرور وفاض قلبي بالغبطة ، لاسيما وان حلمي بالعصا كان يعتادني ، والخفقات الجمة التي كانت بالامس تنثال علي في بداية عملي ما انفكت تتبدى لي ٠ وما أن ألفت العاملة نفسها مهجورة حتى بلغ بها الغضب مداه ، وراحت تشد على يديها وتعركها عركا ، وقد اتقدت عيناها شرا ، وغدت كما يروي « نيوبيه » صلبة وتحولت الى حجرة ٠

فان أنتم ألفيتم هذا الحلم غريبا فصدقوه لان الاحلام تصنع المعجزات ٠

١٥ ـ والتفتت الي الثانية قائلة: « حسنا ، سأثيبك توا على ما قررت وأكافئك على خير ما قضيت ، فادن الآن مني واصعد على هذه العربة « أرتني في الوقت نفسه عربة تجرها خيل مجنحة كأنها البراق » لتعلم أية أشياء عظيمة ليس لك بها علم ٠ وما أن صعدت على العربة حتى أطلقت للخيل العنان بعد أن أمسكت بزمامها ، وحين صعدت في السماء قلبت طرفي شرقا وغربا لعلي ألمح عند مغيب الشمس المدن والامم والشعوب ، ثم رحت ألقي الى الارض ال « تريبتوليم » وهو ضرب من البذور لم أعد أذكره ، وكل ما وعيته أن من كانوا يرمقونني راحوا وهم على الارض يغرقون بمدحي ، أما من دانيتهم فقد مضوا يتابعون تصعيدي بهتافهم ٠

١٦ ـ وبعد أن أطلعتني على كل ذلك ، وأرتني أولئك الناس الذين كانوا يثنون علي ، أعادتني لابسا لا الرداء الذي كنت أتدثر به حين صعدت، بل حلة بيضاء أرجوانية ٠

ومهما يكن من أمر فاني حسبما بدا لي آنذاك ، أبصرتها تجيء الى أبي الذي كان ينتظرني في الدار ، وتريه كيف غدوت حسن الهندام ، وتطلعه على الحال التي بلغتها ، وتذكره بما لو أنهم حققوا ماقرروه بشأني ـ لا قدر الله ـ ٠

تلك رؤياي التي راودتني عند خروجي من طفولتي ، واني لأعزوها الى الاضطراب العميق الذي تأتى لي من خوفي من الضرب ٠

١٧ ـ وبينا كنت أتحدث سمعت شخصا يصرخ : « يا لهرقليس، انه لحلم جميل جدا يستشف منه الدفاع » فقاطعه آخر قائلا : « انه حلم شتاء ذي الليالي الطويلة جدا وقد يكون صاحبه نفسه رجلا له ثلاث ليال كهرقليس ٠٠ ترى أي شيطان حل فيه حتى يقص علينا هذه الترهات؟ ويذكر هذه الليلة من طفولته وأحلامه القديمة الباطلة ؟ انها لعمري خطبة باردة لا عطر فيها ٠٠ أو يخالنا مفسري أحلام ؟ » ٠

كلا يا صاحبي ، فما صنعت الا كما صنع «كزينوفون» حين روى الحلم الذي خال أنه رأى فيه حريقا دهم دار أبيه ، وان لقصته خاتمة تعرفونها ٠ وما كان حلمه كلاما منمقا ، ولم تكن غايته رواية الترهات ، وهو يخوض غمار حرب ويصطلي بنار معركة ، ويرى أمام عينيه كيف كانت الحال يائسة ، والعدو محاصرا ٠ بيد أن ما رواه ينحو نحو الفائدة والنفع ٠

١٨ ـ أما أنا فلئن قصصت عليكم حلمي فلكي يأخذ الشباب منه خير ما فيه ، فيكرس نفسه للدرس ، بخاصة أولئك الذين على استعداد لان يفسدوا فطرة لا تخلو من نبل ٠ واني لواثق بأنهم يشعرون بأن ما قصصته عليهم يشجعهم ، فيجعلونه مثلا ينطبق عليهم ، مقدرين من أي نقطة انطلقت نحو أجمل حرفة ، فتعلقت بالدرس دون أن يثبط الفقر من عزيمتي ، ذلك الفقر الذي كان بالامس يلح علي الحاحا متزايدا ٠

وها أنذا أعود اليكم أخيرا ، وفي وسعي القول بأني قد ازددت شهرة ليست بأقل من شهرة أي نحات ان لم تفقها !٠٠

دمشق — سعد صائب

لحن وحب

قصة بقلم : خالدة عبدالله

من قصة طويلة للكاتبة تسير حوادثها مع لحنين يسيطران على سياقها كلها : لحن الكونشرتو فيولون لتشايكوفسكي وأموج الدانوب لشتراوس نجتزىء منها ما يلي :

الثقافة

المقدمة

صعدت الدرج المظلم في تلك الليلة الباردة وألف عاصف يعصف بي وسؤال في أعماقي، ألم تملي التجوال؟ ألم يتعبك المسير ؟ لماذا أدور وأدور ؟ لماذا أتخبط ؟ ما الفرق بيني وبين من حولي ، لقد عرفت كل ما تريد الا أنا ، أدور باتجاهات متعاكسة ، ملّ المسير سيري ، وتاه الضياع بدروبي •• لماذا ••؟ اني أدور ولدوراني بداية ولا أدري ان كانت له نهاية ••

دخلت الدار وسواد كثيف يلف الدنيا وأفكاري تدور بي وأدور معها ، وكلمات ذاك الانسان الذي شعرت أني أعرفه للمرة الاولى تهز كياني •• ألم تملي التجوال ؟ ألم يتعبك المسير ؟ ووجدتني أردد ، تعبت ولكني سأستمر • توقفت في منتصف الممر مشدوهة •• رباه ماذا أسمع ؟ انه تشايكوفسكي يئن ويتوجع ، ماذا ؟ انه هو • لحني المفضل لحن حياتي ، لكن لا •• مستحيل ، اني لا أملك الاسطوانة •• أسرعت كالمحمومة الى غرفتي ، فوجدت أختي متكتلة بزاوية الغرفة ، وقبل أن أسألها عانقتني وهمست ، انها ـ وتقصد الاسطوانة ـ هدية الدار اليك ، فشددتها الى قلبي واقتربت من الحاكي أتابع دوران الاسطوانة بعيني ، انها تدور وتدور ، وترسل أناتها وتوسلاتها وحيرتها ، انها تعيش ذكرياتها وحياتها الماضية حيث ولدت في تلك البلدة البعيدة والغرفة الصغيرة وقرب الموقد المشتعل ، وانتقلت معها الى تلك الغرفة قرب ذلك الفنان الذي خلقها وعشت معه ميلاد اللحن الذي يستعصي عليه ، انه بجانب المدفأة المشتعلة ، أنين النيران توحي له بهذا المقطع ، والشرارة المتوهجة تلك النغمة الثائرة ، والليل العميق هذا الوقوف•• وانتهت الاسطوانة فأعدتها ، أريد الغرق في اللحن الذي عشت عليه سنوات وسنوات ، وسهرت معه الليلة تلو الليلة •• اللحن الذي رافقني كظلي ، بل ان ظلي كان يختفي في الظلام ويخافه أما لحني فانه معي دائما متحديا الليل والغربة والناس •

عادت الاسطوانة الى دورانها البطيء وعادت ذكرياتي تتهادى برأسي •• واذ بي أعرف كل كلمة قلتها ، كل بسمة أضاءت عيني كل سؤال لمع بثغري ، كل خلجة رفت بقلبي •• الاسطوانة تدور وحياتي تدور معها •• ارتعدت •• لا ، لن أذكر طفولتي وما عانيت ، وشقائي بأنوثتي المبكرة ونضجي السريع •• وخيالاتي الجامحة •• عصفت الريح كتلك التي عصفت بغرفتي هناك في بلدتي البعيدة •• غرفتي التي عرفت ميلاد لحني ووجودي •• ولملمت أعذب وأدفأ ساعات حياتي •• انها غرفة صغيرة صغيرة ، في بلدة بعيدة باردة•• ها ان تشايكوفسكي يئن الآن كما أن في تلك الامسية ومع أنينه عدت الى نفسي أسمع همسها المتموج ، تروي للحن قصة ضياعها ودورانها ، قصة تمردها وتجوالها في الدروب الوعرة ••

انتهى اللحن ليدور مجددا وأدرو معه ، اني أدور وأدور ، ولدوراني قصة تبدأ •

مقطع من الرواية

شردت مع أصداء اللحن بعيدا بعيدا •• ما بي ؟ ماذا أحس ؟•• ما أسمع ؟•• التفت مذعورة وكدت أصيح لا •• لا •• انه ليس شتراوس •• انه تشايكوفسكي عاتبا غاضبا •• لقد تركته الى شتراوس •• وخفت •• وتوسلت اليه نادمة •• عبثا •• ناديته بقلب ما نسيه •• انه تشايكوفسكي مع فيوله الرائع •• مع لحني •• لحن حياتي •• ماذا أرى ؟•• لقد ابتسم تشايكوفسكي رغم أنينه ومع بسمته لمحت حبيبي وسرعان ما تحول الظلام الى عينين وسيعتين تحدقان بي •• وأشعة عسلية تلف الدنيا حولي بضباب كثيف وزأر اللحن مع الريح الداوية بجنون وتصاعد زئيره من عمق البحر •• من وراء الافق •• ما أسمع ؟•• الموجة العاتية تئن تزرع البحر جراحا •• الوتر الكئيب يغمر الافق نواحا •• وحبيب بعيد يقطع الاهوال •• يطول المحال •• ويرتمي مع النغم على أقدام حبيبته الحسناء •• انه حبيبي يطير الى تشايكوفسكي على جنح النغم •• وشعرت أني تلك الموجة تلفني نظرات حبيبي الدافئة •• وتضمني يده الحانية ويهز النشوة في كياني نداؤه الهامس •• اللحن يمتزج بشعاع عينيه وتموج جفنيه •• مشيت على المياه •• مشيت •• اللحن دليلي وتشايكوفسكي رفيقي •• مشيت •• وأنين المياه تكاد تودي بي •• ماذا ؟•• اني أدور وأدور •• لا أستطيع الوقوف •• أدور مع الموج واللحن •• أدور وأدور •• ماذا ؟•• اني أكاد أهوي •• لا أقوى على الاستمرار •• ولكني سأستمر •• اللحن يعصف •• وكياني يرتجف •• وقلبي ينخلع •• اللحن يدور ويدور وأنا أدور معه •• أدور هنا وهناك أدور في كل الاتجاهات أدور وتدور معي كآبتي وأشلاء جسدي وبقايا عواطفيَ وحطام دموعي •• وحاول شتراوس الولوج عبر الموجة الى شرفتي ولكنه ارتد خائفا مذعورا •• ارتد نادما مسعورا •• وركع في محراب تشايكوفسكي ومسح الارض تحت قدميه •• وسكن وشاركه أنينه ومرضه •• لملمت ذاك اللحن بحنان وأطبقت عليه جفونا ما عرفت الابتسام •• فانسابت أناته هادئة ثائرة فتحول الكون كل الكون الى أنات مسعورة ، خائفة ، ووشوشة مسحورة ناعمة •• و •• أسرعت الى محراب حبي مع لحني وغسلت تربته بدموعي النادمة المستغفرة •• أبلل بها أقدام حبيبي الثابتة •• وتمتمت•• حبيبي اني معك •• حبيبي أناديك ألا تسمعني ؟ أرهف السمع حدق في أسطوانتك تجدني أرنو اليك وأناديك وأطير اليك مع اللحن والليل •• حبيبي تشايكوفسكي يدور وأنا أدور معه •• حبيبي قضى تشايكوفسكي وهو يسأل : أقدمت للفن شيئا أم كنت دعيا ؟•• سأل وأجاب •• لقد أعطيتكم النغم •• كل ما أملك وكنت مخلصا له وعشت من أجله•• وأنا ماذا أعطيك أيها الحبيب؟ وهبتك صمتي وكآبتي وأعماقي المثقلة ودموعي الجامدة ، لانها كل ما أملك بل حقيقة ما أملك •• ما بي ؟ ان كلماتي تاهت في الدروب العاتمة وغاصت في الاغوار السحيقة •• وحبيبي هناك لم يسمعها ويتبين مصدرها •• كدت أجن وأنا أصيح ألا تسمعني أيها الحبيب •• فيعلو الصدى أجش قاسيا • وسخرت مني موجة صغيرة وقهقهت شامتة •• ودغدغ شتراوس سطح المياه واختفى بلا ظلال •• وتلاشى الضباب العسلي تخلقه نظرات الحبيب المتسائلة العاتبة •• انتفضت مذعورة وبقيت مع تشايكوفسكي تتألم وتئن •• صحت بآهة مسموعة : لا •• لا •• محال •• وكدت أهوي •• فأمسك طارق وقال :

– حنان •• حنان ••

– نعم ••

– ما بك ؟••

– انه يهمس بأذنك أنت لان اللحن لحنك ••

– ألم أقل لك ان لحني هناك ؟••

– ألا تعزفه لي يوما •• فحدق بي وتمتم ••

– كان لي لحن أعزفه ••

– والآن ؟••

– الآن تغيرت ••

– تغيرت ؟ ••

فحدق بي طويلا وألف جواب وسؤال مرير في



دمشق أنا هنا عطر جناحي
كخد الورد مجنون النفاح
وقلبي بين أضلعه هزار
على أيك تفنن بالصداح
فملء الأيك زقزقة وشدو
وملء الأيك أطياب الجناح
أساقية القرائح كأس وحي
وملهمة القرائح عن سماح
أراك على الزمان جنى وعطرا
وقيثار الشباب بكل ساح
وملحمة على فم كل حر
تعصب كبره بسنا الصباح
فكم نافحت عن حق نبيل
وحقك فيه كالفجر اللياح
وعطرت السلاح على جراح
فياطيب السلاح على الجراح
وزررت القميص على رصيد
من التاريخ نفاح الوشاح
أنافحة الخلود عطور غار
فليس المجد الا في السلاح
وما كان السلاح لنا لغزو
ولكن هذه لغة الوقاح

حنا الطيار

نظراته التي توهجت وهو يتأملني .. أرخيت أهدابي وتمتمت ..

ـ عفوا على سؤالي ورفعت نظراتي فالقيته لا يزال يتأملني .. ارتبكت وحرت ماذا أصنع ؟ وقبل أن أتكلم قال :

ـ أنت على حق في سؤالك .. ولكن قد تتبدل حياة الانسان بارادته ووعيه ظاهريا ..

ـ ولكن ايترك الفنان الحانه

ـ الفنان لا يترك الحانه ومعزفه .. أما الانسان العادي فيتركه .. وكبرت بسمته المريرة في فمه ..

ـ انك فنان موهوب ولست انسانا عاديا ..

ـ لقد حطمت كماني وقذفت بها بعيدا بعيدا وارتعد .. وصمتنا فعاد الينا شتروس وأوغلنا معه في غاباته الموحشة وخرافاتها العذبة (خرافات الغابة) وانتقلنا وأياه من شجرة كبيرة الى اصداء مخيفة .. من ظلام مسيطرالى وشوشة مذعورة واطفئت الانوار تقريباوخلت الساحة من الراقصين.. فجررنا أقدامنا مرغمين ورجعنا والصمت رفيقنا الى الفندق .. وقبل أن نصعد السلم قال لي :

ـ حنان ..

فرنوت اليه بدلال ونشوة وتعب .. فتاملني واردف

ـ حنان .. ان احتجت الي .. اقرعي الجرس فيخبرني النادل ..

صعدت السلم مستندة الى ذراعه القوي وجسدي يكاد يترنح وهو ممسك بي .. وفي البهو همس

ـ حنان ما رأيك بتحية البحر..وسار بي الى الشرفة يلفنا صمت معبر..تاهت نظراتي في المدى البعيدوالظلام أشيب من أضواء الملاهي المتكسرة على طول الشط فقلت

ـ ان هذه الاضواء تشوهجمال البحر وتضعف روعته وجبروته .. فقال

ـ معك الحق .. انظري .. هناك .. أتلمحين الضوء الخافت ..

حدقت جيدا ..

ـ ماذا .. انه الضوء الاخضر الذي لفنا ..

ـ نعم انه هو .. اسمعي

ـ ماذا ؟ لا يمكن ..

ـ انه شتراوس ينساب عبر الموج الدافق الينا

دعوة العامية نزعة شعوبية

بقلم: سليم بركات

تثار في أنحاء العالم العربي بين حين وآخر دعوات يكثر ترديدها تارة وبصمت المتحدثون عنها صمتا عميقا تارة أخرى . ويتخذ الحديث عنها شكل الفرقعة العنيفة مرة وشكل الهمس الخجول مرة أخرى ثم تمضي الامور دائما كأن شيئا لم يحدث وكان دعوة لم تدع ولا يبقى هناك من يقال انه صاحب الدعوة ولا يثبت من الآثار القلمية ما يخلدها أو يضمن لها موضعا بين الافكار والدعوات .

وهذه الدعوات الغريبة التي أعنيها هي تلك التي تتناول قضايا اللغة والثقافة اللغوية أو تتناول في بعض الاحيان قضية اللغة العربية نفسها جملة واحدة ويتراوح مستوى الحرارة في عقول الدعاة وفوراتهم الفكرية بين خطوط كثيرة من مؤثرات الاعتدال والتطرف أو الوعي واللاوعي فحينا يكتفي داع ما بأن ينادي بتسهيل القواعد واختزال الاعراب وحينا آخر يأتي زميل له راغ مزبد شديد الحنق فلا يقنع بما دون تدمير اللغة وازالة أنقاضها ازالة نهائية .

ومن حقي ومن حق القارىء أن أعلن له منذ البداية انني من هؤلاء الذين يعجبون اعجابا لا حد له بكل فكره تدعو للتقدم والترقية الثقافية وأنني من المتعصبين لمبدأ التطور في كل الكائنات الحية والظواهر الاجتماعية بوجه خاص تعصبا أخشى أنا نفسي أن أكون مسرفا فيه واني أبعد ما أكون عن هذا الفريق الذي يدافع عن القديم لمجرد تقديس قدمه أو الذي يناهض الجديد لا لشيء الا عدم اساغة الشيء الجديد .

كل ما في الامر أنني أفرق دائما وأحب من المثقفين أن يفرقوا بين البلى والقدم وبين التطور والفساد وبين هدم من يهدم ليبني وهدم من يمسك معول الحقد والضغينة أو معول العبث واللامبالاة .

والشيء الذي يدفعني لكتابة هذا المقال الذي أبتغي به مناقشة بعض النواحي الصائبة أو الخاطئة مما يتردد في معرض الافضاء بالدعوات المذكورة أو قذفها في الاحاديث والبيانات ـ هذا الشيء هو المساهمة المتواضعة في جلاء بعض النقاط التي أعتقد أن هناك ما يستحق البحث الجدي منها كما أنني من جهة أخرى أود العمل على تبديد الفوضى الضميرية التي يثيرها الاسلوب غير المنطقي وغير المتزن الذي تنطلق به هذه الدعوات في غالبية الحالات اذ تأتي عن طريق أناس يلقون أقوالهم جزاما وينثرون خلالها من قطع النقد الفكري المتداول ما يقل التناسب بينه وبين ما نثر خلاله لكن اغراءه قد يكون شديدا بالنسبة لبعض من يطلعون عليه فيدفعهم الى أن يعجبوا به ويلقوا له سمعهم ولو أن الواحد منهم في نفس الوقت لا يحس بأن فكرة قيمة واضحة تشفعها الادلة الصادقة بلغت منه موضع الوعي الصحيح .

وقد يكون من المناسب ونحن نتعرض لدعوة العامية وما يلحقها من تصويرات وادعاءات ـ قد يكون من المناسب أن نلاحظ موقع هذه الدعوة في اطار التاريخ القصير الذي مرت به مختلف الدعوات الايجابية والسلبية التي أتت عن التفكير في موضوع اصلاح الثقافة أو اصلاح اللغة العربية وملاءمة طاقتها وأصولها لمطالب الفكر والثقافة في العصر الحديث .

ومما هو واضح لكل من خبر موضوع صلة اللغة بالحياة الفكرية وبالثقافة الاجتماعية أن اللغة تتمشى في ناحية قوتها وضعفها ونهوضها وتخلفها تابعة كل المتابعة لمستوى ثقافة المجتمع الناطق بها ونمط اتجاه هذه الثقافة وحاجاتها التعبيرية التي تفرض على اللغة باستمرار أن تتكيف تكيفا طبيعيا يجعلها قادرة على الوفاء بتلك الحاجات . فاذا كان المجتمع ماضيا في حضارته وفي الوجه الفكري منها في سبيل مطردة سليمة فان اللغة تظل قادرة على ملاءمة هذا السير نامية نموا طبيعيا مطردا توجهه ظروف استعمالها نفسه قبل أي شيء آخر أما اذا توقف المجتمع وسيطر الركود على حياته العقلية فان حيوية اللغة تنكمش وتتضاءل بل وتميل نحو التقلص والضعف نظرا لان من طبيعة الكائن الحي وخاصة عندما يكون من مستوى العقليات والامور المعنوية ـ أنه اذا لم يكن في حالة تطور الى الامام فلا نجاة له من التراجع الى الوراء وأنه اذا لم يتقدم في سبيل القوة فحتم أن يكون منسحبا نحو الضعف أو الفناء .

لكن اللغة من جهة أخرى كائن شديد المقاومة عظيم القدرة على اجتياز مراحل التوقف والركود متى توفرت له الظروف التي تدعوه للنشاط الحيوي من جديد وخاصة اذا كانت النقطة التي توقفت اللغة عندها تختزن وراءها ثروة حقيقية من المفاهيم والاساليب الناضجة • أي اذا كانت اللغة قد أدت في ماضيها دور المعبر القدير الشامل عن حياة فكرية عالية المستوى وعاشت بها أمة متحضرة نامية الحضارة • وشرط آخر يضمن للغة القدرة على الانبعاث الجديد : هو صمود التكوين القومي للمجتمع الناطق بها وعدم تعرضه لتحولات عنيفة تتناول الاسس العميقة من بنيته •

فاذا نظرنا الى ما تقلب على اللغة العربية بالذات من فترات التقدم وعهود الركود فاننا نشاهد أنها قد تمكنت في عصور النهضة العلمية العربية من تمثيل أرقى ما بلغته الثقافة العالمية في شتى فروعها حتى تلك العصور كما تمكنت من مسايرة الجهد الابداعي العظيم الذي قادت العقلية العربية الفكر الانساني به الى أن جد من التطورات السياسية داخل المجتمع العربي وخارجه ما نقل هذه القيادة الى عقليات أخرى •

وعند هذا الحد بدأ المجتمع العربي وبدأت ثقافته وبالتالي لغته عهدا طويلا من التوقف بل ومن التأخر والخسارة تمثلت نتائجه في انصراف العقلية العربية عن الابداع الى التقليد وعن التجديد الى الطواف حول أوثان القديم • وكما يقع للجسم المريض المنحرف التكوين اذ تتحول أجهزته عما قدر لها من أساس الوظيفة ، الى حالة تنتج فيها ما يعود على الكيان الشامل لها وعليها هي أيضا بالتحلل والضعف ، كذلك فان العقلية العربية التي فقدت أسس العمل الفكري الصحيح وفقدت المجال الحيوي الطبيعي الذي تشتق منه ما يثير فاعليتها العميقة وماتبسط فيه مجهودها السوي - هذه العقلية قد عاشت عهد الانحطاط هذا في أشد مستويات الحياة الفكرية هبوطا وفي نطاق أضيق حدود المفاهيم والمعاني التي تجمع الى ضيقها صنعة الجمود ، وعاد هذا كله بطبيعة الحال على اللغة العربية نفسها بما كانت تتصف به قبل بداية عصر النهضة الحديثة من فقر ومن فقدان للمرونة ومطاوعة المعاني الفكرية المبتكرة وبما نشاهده حتى الآن من حاجتها الملحة الى ضبط المصطلحات العلمية الجديدة وترسيخ أسس المعالجة والصياغة لكثير من المعاني والافكار العلمية الجديدة على الثقافة العربية •

ولقد واجه رجال النهضة الفكرية الحديثة مشكلة تطوير اللغة أو لنقل مشكلة التطور باللغة من أعماق طبيعتها منذ بدأ العالم العربي يقدر ما أصيب به كيانه القومي والثقافي من تخلف ومنذ بدأ يتعرف ما يجب عليه عمله للوقوف في مصاف الامم القوية الحديثة • ولما كانت الثقافة في كل عصر أساس البناء الحضاري الصحيح وخاصة في عصرنا الحاضر الذي أصبحت كل أوجه الحياة الفردية والاجتماعية تعتمد حتى في أصغر تفصيلاتها على الحقائق والنظريات العلمية المتطورة كل يوم ، لذا فقد كان من أهم ما بحثه المصلحون والمفكرون في العالم العربي مسألة بعث العقلية العربية وايجاد الثقافة والعلم العربي المساوي في مضمونه ومستواه لدرجة ما بلغه الفكر لدى الامم المتحضرة الناهضة في العالم مع ضمان الاصالة وابتكار الجديد •

وقد أثارت هذه الاهداف وكذلك المجهودات التي بذلت في سبيلها - أثارت وما تزال تثير أمام المفكرين والعلماء مشكلة اللغة ونقص المرونة الذي أصيبت به نتيجة عهود الانحطاط كما سلف القول ، وشعر رجال الفكر في العالم العربي ان اللغة العربية بالوضع الذي خلقتها به عهود الجهل والركود الطويلة تقصر عن وظيفتها تقصيرا يزيد بالنسبة لبعض فروع العلم ويقل بالنسبة لبعضها الآخر ، وأنهم كيما يحيوا الثقافة وينشروها وكيما يبعثوا العقلية العربية لا بد لهم قبل كل شيء أن يعالجوا مشكلة اللغة ويقطعوا بها مسافات التخلف الفاصلة بين ما كانت عليه وما ترشح لتقوم به من مهام الفكر والثقافة • وبدأت نتيجة هذا الشعور مشكلة اللغة العربية وبدأت الدعوات والاتجاهات المتباينة المتعلقة بطريقة معالجتها •

يلاحظ المتتبع لتطورات الثقافة العربية منذ مطلع هذا القرن وحتى الوقت الحاضر أنه فيما يتعلق بمسألة اللغة العربية قد انطلق اتجاهان متباينان في أسسهما وأهدافهما ومتباينان في دوافع انطلاقهما في كثير من الاحيان وهما اتجاهان يطويان في تضاعيفهما عددا من وجهات النظر المختلفة التي تميز ضمن الاتجاه الواحد ألوانا متعددة •

كان أول هذين الاتجاهين هو الاتجاه الايجابي التطوري الذي لاحظ أصحابه ما أصاب اللغة من جمود وتأخر وما طرأ على تصميم قواعدها من نمو مرضي واحتفال مريع بالطفيليات الخبيثة التي تمتص مادة الحياة فيما تطفلت عليه وكان منحى هؤلاء هو التفكير والعمل على اكتساح الرواسب المتكاثفة وافساح المجال أمام العقلية العربية كي تتفاعل من جديد مع لغتها فتعيدها في مستوى الحياة والتقدم اللائق بها •

وكان أساس وجهة النظر في هذا الاتجاه هو الاعتقاد بقابلية اللغة العربية للتطور على يد من يجيد درس أصولها ويستفيد فيه من مناهج البحث الحديث ومما قام به اللغويون الباحثون في الامم المتحضرة بشأن لغاتهم نفسها

مع قدر بنائي معقول من حرية الفكر وابتكار المناهج والاسس نفسها . يضاف الى ذلك أيضا الاعتقاد بأن جوهر المشكلة لا يقع في طبيعة اللغة العربية نفسها وانما في جانب سطحي من تكوينها وأن الموقف في العصر الحديث لا يكاد يزيد كثيرا في مكوناته عن الموقف الذي واجه اللغة العربية في بداية عصر نهضة الثقافة العربية عندما واجهت ثقافة اليونان والرومان والامم الاخرى محاولة أداءها ونجحت في مهمتها رغم أن مهمة الترجمة قامت في جانب كبير منها على يد تراجمة لم يكونوا يحسنون العربية كما يجب أن يحسنوها .

والجدير بالذكر أن هذا الاتجاه قد كان نابعا من نفس المصدر الروحي الذي نبعت منه حركة التحرر السياسي العربي ومحاولات ما قبل الحرب العالمية الاولى وما بعدها للخلاص من السيطرة الاجنبية وانشاء دولة عربية موحدة حديثة . وكان الاتجاه السياسي في الواقع متكاملا في المجهود والهدف مع الاتجاه الثقافي ومتحدا معه في أسسه الفلسفية . فكلا الاتجاهين كان يقوم على أساس الاعتراف بتخلف الامة العربية في ذلك الحين واليقين بقدرتها على النهوض اعتمادا على مقوماتها الذاتية الكامنة وامكانياتها الدفينة بصرف النظر عن العوامل والمساعدات الخارجيه ذات القيمة الثانوية .

أما الاتجاه الثاني فقد كان اتجاها انهزاميا سلبيا يقوم على الانحلال ويدعو للهدم والاستسلام لتيارات الغرب الروحية وكان أصحابه يعتقدون ويدعون غيرهم للاعتقاد بأن الامة العربية قد أفلس ضميرها وانهار بنيان ثقافتها وأن عليها أن تصهر نفسها صهرا جديدا في قوالب التفكير والشعور الغربية وتقتبس مادة الحياة وروحها من الغرب كي تحيا من جديد .

وامتدت شعبة من فروع هذا الورم الفكري الى ناحية الثقافة واللغة فنظر أصحاب هذا الاتجاه الى نفس ما سبق الحديث عنه من مشكلات تخلف اللغة عن حاجة العلم والفكر الحديثين فكان رد الفعل لديهم قطعا بعجز اللغة العربية في طبيعتها وفي أساس نظم قواعدها ومناداة بحتمية اتخاذ اللغات الاوروبية نفسها في تدريس وبحث المواد العلمية العالية وقصر العربية على الموضوعات ذات المستوى الادنى .

وتجلى هذا الاتجاه في شكل آخر لدى فريق ثان من أصحابه هو قياس اللغة الفصحى في وضعها المعاصر على وضع اللغة اللاتينية التي اندثرت وحل محلها لغاتها المتفرعة عنها وبدأت الفكرة التي تقول بحتمية وراثة اللهجات العامية العربية للغة الفصحى وأن ذلك حكم التطور وضرورة التاريخ .

وكان المصدر الذي انطلق منه هذا الاتجاه يرجع الى منبعين أولهما هو التأثير الاستعماري والمجهودات التي بذلتها السلطات المحتلة في العالم العربي بشكل غير مباشر غالبا بقصد توسيع الهوة بين حاضر الامة العربية غير المستقر وحقيقتها المتمثلة في ماضيها العريق ، وكذلك بقصد دعم عوامل التيه الروحي التي كانت تجتاح الضمير الشرقي في بداية هذا القرن ومناهضة فرص التفاهم واللقاء بين مختلف فئات الوطن العربي التي تباعد بينها اللهجات المحلية المتباينة في حين أن الفصحى توحد بين أبناء العربية في شتى الديار .

والمنبع الثاني هو هذا الفريق من الآخذين أو لنقل المأخوذين بالثقافة الاجنبية من الذين انهارت نفوسهم تحت ثقل التخلف الهائل الذي شاهدوا فيه الواقع السياسي والثقافي لامتهم بالقياس الى الواقع الاوروبي فتحطمت نفوسهم وأصبحوا دعاة هزيمة واستسلام يرون في الشرق عجزا مطلقا وفي الغرب معجزة مطلقة .

وما دمنا قد آثرنا أن نعلل قيمة هذا الاتجاه على أساس افتراض عوامل نفسية بدلا من اعطائه قيمة ما ينتج عن المحاكمات العقلية فلنصف اذن فريق الذين يميلون الى الافكار العنيفة والى دعوات التهديم والهجوم ارضاء لنزعات نفوس شاذة مراهقة لم يهذبها العمق العلمي أو تكبح جماحها أخلاق الثقافة الحقة والفكر الصحيح .

أما الاتجاه الاول الهادف الى تطوير اللغة وملاءمتها لمطالب الثقافة الحديثة فمن الحق أن نعترف بأنه ما زال عليه الكثير مما يجب تحقيقه وأن جوانب هامة من المشكلة الاساسية ما زالت تتطلب المعالجة والحل ، كما أن من الانصاف أن نعترف بأن مجهودات هذا الاتجاه ونتائجه حتى الآن قد بررت الاساس الذي قام عليه والفكرة الاولية التي انطلق منها حتى ان كل العلماء والكتاب في اللغة العربية أصبحوا يعملون مستوحين من غايته دافعين لمجهوداته نحو الامام .

بينما لم يتجاوز الاتجاه الآخر الداعي الى الهدم — لم يتجاوز طوره السلبي الذي يقف عند حد الدعوة الى الهدم . كما لم يخرج عن أصحابه القلائل من الاعمال الايجابية ما يؤصل اتجاههم أو يبرزه في نتائج عملية مثمرة ، وهذا الى جانب أنه ما زال يفتقر الى شخصية مفكرة أصيلة تدعمه أمام الرأي العام العربي وتهب له قيمة الاتجاهات الرصينة أو الافكار التي يحترمها قارئها عندما يطلع عليها أو التي يحترمها صاحبها عندما يلقي بدعوته لها حديثا يذاع في الناس . وأكبر الظن أن هذا الاتجاه سيظل الى ما لا نهاية في حالة الافتقار هذه مكتفيا بالدعم الذي يناله من مصادر لا سبيل الى دعمها في يوم من الايام !.

لقد قلت في غضون ما تقدم ان الدعوة ضد اللغة العربية أو ضد الفصحى لم تتمثل حتى الآن في انتاج قلمي مركز

لكاتب عربي ذي قيمة عالية وهي انما استبانت في وجه هذا التوجيه الاستعماري الشعوبي الذي أدى الى أن بعض الجامعات في العالم العربي اتخذت تقليدا لها تدريس المواد العلمية باللغات الاجنبية بينما أثبتت جامعات أخرى قدرة اللغة العربية على تمثيل كافة الحقائق والنظريات العلمية دون أي عجز أو قصور متى وجدت العقول التي تجيد استعمال اللغة وتطويعها . ومن المؤكد أن الثقة بالعربية والرغبة في اصطناعها للتدريس والتأليف موجودة في الوقت نفسه لدى غالبية العلماء والاساتذة الجامعيين في الجامعات الاخرى غير أن التحول من وضع التصنيف والتدريس الحالي الى وضع ينقل فيه مجموع العلم غير المعرب الى صيغة عربية يفتقر الى جهد ليس بالهين ولا مما يتم في أمد قصير كما أنه من الخير أن يتم ذلك بصورة تحل معها نهائيا مشكلة اضطراب الاصطلاحات بين شتى البلدان العربية ولدى هذا المؤلف أو ذاك في البلد الواحد (١) .

ولست أظن أن الدعوى بقصور العربية عن استيعاب الثقافة العالمية في وجوهها العلمية والادبية قد بقي من يقول بها أو يحتاج لسماع المناقشة حولها بعد أن زال التأثير الاستعماري عن تفكير الامة العربية . وأصبح المواطنون العرب يفرقون تفرقة ذكية بين العلم الغربي الذي ينتجه العلماء الصادقون وبين السموم الفكرية التي يحضرها ساسة الغرب ومن يؤجر عقله لمؤامراتهم من علماء ومفكرين باعوا شرف العلم والفكر في سوق التعصب والاستعمار الذي ما غادر رجال الغرب قيمة انسانية سامية الا ابتذلوها فيه .

لكن النغمة التائهة الخجلة التي ما زالت تعزف بين الحين والآخر في هذا الجزء أو ذاك من أجزاء العالم العربي وعلى يد عازفين قلما أثبتوا مهارتهم في استثارة الاعجاب أو استمالة الاسماع هي نغمة الدفاع عن حق الشعب في الثقافة واتهام الفصحى بأنها لغة سبقها ركب التطور وأنها لغة عنيفة صعبة التعلم ينفق الدارس لها سنوات عديدة لا يبلغ بعدها من اتقانها ما يجعله يقرأ المكتوب بها قراءة صحيحة فضلا عن أن يعبر عن أفكاره بها تعبيرا يرضي تزمت النحاة وصرامة أهل الصرف والقياس .

ويبلغ الامر بهم حد القول بأن اللغة الفصحى ما هي بالنسبة لابناء البلاد العربية الا شبه لغة أجنبية شاقة يكرهون على تعلمها في حين أن اللغة الحية المتطورة التي ندعوها باللغة العامية يجب أن تكون هي لغة ما يكتب من العلم والادب لانها لغة الشعب ولغة الحياة .

ويقولون ان الخط العربي نفسه يزيد من تعقد المشكلة بطبيعته لان من شأن هذا الخط أن يجعل العلاقة بين قراءة النص المكتوب واستخلاص معناه علاقة مقلوبة . ففي حين أن القارىء في اللغات الاخرى يقرأ ليفهم نرى أنه في اللغة العربية يفهم أولا كي يتمكن من قراءة النص قراءة صحيحة نظرا لتعدد الاوجه التي تقرأ الكلمات بها حسب المعنى المقصود منها وهو تعدد لا يزول الا بعد معرفة حقيقة الكلمة وتحديد معناها .

ويستصرخ أصحاب هذه الدعوات أخيرا بحق الشعب في العلم والمعرفة وبأن الديمقراطية الحقة تقضي بان يراعى في الثقافة حق كثرة المواطنين لا الصفوة المختارة منهم لان عدم تأمين حق المواطن من زاد العقل والقلب أشد نأيا عن العدل من حرمانه من زاد الطعام والشراب .

الواقع أنه ليس في مجال البحث العلمي أقرب الى الخطأ من هذا الذي يقبل فكرة أو يرفضها بكل ما تشتمل عليه أو ما تقتضيه من نتائج . والخطأ والصواب في غالبية الحالات وخاصة عندما يتصل الموضوع بالنواحي البعيدة عن المقاييس العلمية الدقيقة في الرياضة — قدر نسبي تشترك فيه الافكار جميعا ، ويختلف حظها من أحد جانبيه حسب تكوينها هي حينا وحسب المناسبة التي وردت فيها أو الهدف الذي جمع بين عناصرها واتجهت اليه أحيانا أخرى . ولذا فلا يتبادر الى خاطر القارىء أن كل ما أوردته من النواحي التي يستند اليها دعاة العامية وخصوم النحو العربي — نواح مطلقة الخطأ في كافة تفصيلاتها وانما مصدر الخطأ كما سنرى هو المبالغة غير العلمية في تصوير الجانب الاكبر منها . ثم سلوك طريقة تستحق أن توصف بأنها طريقة انتهازية فوضوية في نظم الحقائق واستخلاص الآراء نظرا لانها طريقة تؤمن ببعض الكتاب وتكفر ببعض وتتعمد تجاهل ما لا يسند أصحابها من بعض الاعتبارات الهامة التي تذري بأفكارهم وتقضي على ما يريدون تأكيده من دعاوى .

يضاف الى ذلك أن أسلوب التهجم وتعقب الامور المهجورة البالية وتركيز الحملات عليها وهو الاسلوب الذي لا تأتي دعوات العامية الا به ليس في حد ذاته مما ينبىء عن الافكار المخلصة الرصينة وانني لا أستطيع أن أسيغ التفكير بأن النية الحسنة في البحث العلمي يصاحبها ابتداء بالتهجم بصورة لا مبرر لها ولا يوجد ما يقتضيها . فالمفكر الذي يقدر الفكر حق قدره يفرض في كل لحظة أن ما يعتبره خطأ قد يكون هو عين الصواب ويصون قلمه عن أن يجعل من كلمات السب ومعاني الافتراء جزءا من مقومات فكرته وبراهينها .

أما مناقشة ما أوردته مما تثيره دعوة العامية ومذهب الاساليب الركيكة فهي نصيب المقال القادم .

---

(١) بعض الاساتذة الجامعيين يؤيدون تدريس المواد العلمية كلها أو بعضها باللغات الاجنبية بقصد توسيع اطلاع طلابهم في المصادر الاجنبية الكبرى . وهو أمر قد لا يتيسر مع التدريس الشامل بالعربية . وهي وجهة نظر جديرة بالبحث . وانني شخصيا من الذين يستنكرون انحصار الثقافة في دائرة مغلقة وأعتقد أن التعمق في درس الثقافات الاجنبية ذو قيمة حيوية للغاية .

وبلغت أغواري

شعر : محمود البارودي

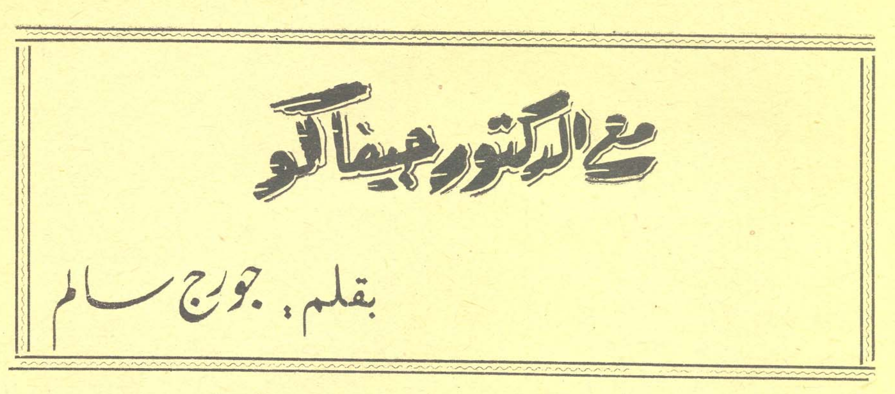
أنا لست أؤخذ بالذي بهرت به — عين الاريب فطاش كالغر الغوي
أتعجل الاطراء قبل أوانه — وأضيع في أصداء ذياك الدوي
أهفو الى شم الذرى لكنني — لا أسلكن لها الطريق االملتوي
آوي الى نفسي فتعصمني الرؤى — اني على نفسي الكبيرة منطوي
كم غصت في أعماقها متأملا — وصدرت عن نفسي ولما أرتوي
وبلغت أغواري فلم أغرق بها — وكشفت عن سر هنالك منزوي
وعكفت كاللبق الصناع أصوغه — بالدر والياقوت رصعت الروي
لا أدفن المعنى المضيء بلفظه — ليغيب في الاعماق كالجسد الثوي
أنا كالمنار أشع في حلك الدجى — وأذوب من حر اللهيب وأكتوي

محمود البارودي



على الشفة الحمراء كون من السنا — ففيها استحم الفجر واغتسل البدر
هنا رقدة الاحلام والصبح والمنى — هنا الوحي عباق النسائم والعطر
هنا يقظة الانفاس بالطيب والشذى — هنا الحب والريحان والورد والطهر
عصرت بها روحي خيالا ورقة — فأيقظني خمر الصبابة والسكر
وأترعت من وحي الشفاه لبانتي — فطافت بي النعمى يدغدغها الثغر
ورحت وبي من عالم الحلم نشوة — ومن وحي جفنيها الطلاوة والسحر
ولي من نسيج النور ثوب منمنم — تمنطق فيه الوحي وائتزر الفجر
اذا ما لثمت الثغر يوما بروضة — تفتح عن أنداء مبسمها الزهر
ورفت على الدنيا صباحا معنبرا — رفيف الاماني هزني الشوق والشعر
وشع على أذيالها النجم قائلا — ربيع بني الدنيا غلائلها الخضر
يتيه صباح الكون والدهر حالم — على مرشف يحلو به الماء والخمر
هي النور والنعمى هي الطيب للهوى — هي الافق للدنيا هي المأمل النضر

شاعر الجبل



قد يعمد المرء الى تاريخ حادثة من الحوادث أو فترة من الفترات ، فيسلك سبيل المؤرخين ، ويكون عمله تأريخا لهذه الحادثةأولتلك الفترة؛ وقد يعمد الى مناقشة مذهب من المذاهب أو فلسفة من الفلسفات ، فينهج نهج المفكرين ، ويكون عمله نقدا ودراسة لهذا المذهب أو لتلك الفلسفة وقد يخلق الاديب بطلا من الابطال أو نموذجا من النماذج الانسانية ويحدثنا عن مصير الانسانية ، والتيارات الاجتماعية التي أثرت فيه وتأثر بها والمثل العليا التي آمن بهاوأوسعى لتحقيقها ، فينسج على منوال الادباء في شتى طرائقهم ومتنوع أساليبهم ٠

أما الاديب الروسي المعاصر بوريس باسترناك ، فلم يكن مؤرخا لفترة من الفترات ، ولم يكن ناقدا لمذهب من المذاهب ، ولم يكن راسما لشخصية انسانية وحسب ، وانما كان مفكرا وأديبا وأراد الى ذلك أن يمس التاريخ وان يتعرض للفلسفة ، فكان كتابه الدكتور جيفاكو رواية تدور حوادثها في فترة عصيبة من فترات التاريخ المعاصر،هي فترة الثورة الروسية وما تبعها من سنوات، وتتعرض لمذهب اجتماعي وفكري من أخطر المذاهب التي ظهرت في المرحلة الاخيرة وهو المذهب الشيوعي ٠

سكب باسترناك أثره في قالب الرواية التاريخية ، وهذا القالب معروف مشهور اتخذه من قبله كثير من الروائيين كدوماس وبلزاك في كثير من رواياتهما ، وتولستوي في الحرب والسلم وهمنغواي في رواية « لمن تقرع الاجراس » ومالرو في « الامل ، والغزاة » الى آخر ما هنالك من كتاب اتخذوا هذا القالب سبيلا لكتابة انتاجهم الادبي ٠

تبدأ حوادث الرواية في اخريات القرن التاسع عشر وتنتهي قبيل الحرب العالمية الثانية فهي اذن تمتد حوالي نصف قرن في الزمان ، كما تنتقل حوادثها في كل أطراف روسيا ، أما ما يعطيها وحدتها الفنية فوجود بطل واحد تتمركز حوله الاحداث،ويشكل بالنسبة للرواية السلك الدقيق الذي يربط حياتها كلها ، هذا البطل هوالدكتور جيفاكو ٠

فمن عسى أن يكون هذا الانسان ؟

يمثل الدكتور جيفاكو شخصية المثقف ، فهو من المثقفين الذين يعيشون الحياة بكل تجاربها وعمقها ، ويتأثرون بمجتمعهم وما فيه من نزعات ، ويؤمنون بمثل عليا يريدون ان يرتفع المجتمع الى مستواها ٠

ولكن هؤلاء المثقفين أشقياء حقا بثقافتهم،فبين الافكار التي يؤمنون بها ، والمثل التي يصبون اليها،وبين الواقع الذي يعيشون فيه ، وطريقة تحقيق الافكار التي بها يؤمنون ٠ بون أي بون ، وهوة أية هوة ٠

نشأ جيفاكو يتيم الابوين ، فقد فقد أمه وهو في العاشرة من عمره ، أما أبوه المتلاف الذي عاش بعيدا عن اسرته ، فقد انتحر بعد ذلك بقليل اذ رمى بنفسه من القطار ، فكفل الفتى جيفاكو خاله نيكولاي ، وقد كان هذا انسانا مثقفا عميق الثقافة ، صوفي النزعة ، فتأثر الفتى بكثير من آرائه ونظراته ٠

ولم يلبث جيفاكو أن انتقل الى موسكو حيث أقام في بيت آل غروميكو ، وفي موسكو درس الطب « ومع أنه كان شديد الميل للفنون والتاريخ ، فانه لم يتردد في صدد اختيار مهنة له ، لقد فكر أن الفن لم يعد طريقا في الحياة ، كما أن المرح أو الكآبة الولاديين ليسا بمهنة ، وكان شديد الاهتمام بالفيزياء والعلوم الطبيعية ويعتقد أن الانسان يجب أن يقوم بعمل نافع اجتماعيا في حياته العملية ، وهكذا استقر على الطب » ٠

وبعد تخرجه تزوج من تونيا غروميكو ، الفتاة التي كان يقيم في بيت ذويها صغيرا ، ولكن ها هي ذي الحرب العالمية الاولى تنشب ، وفي السنة الثانية منها تضع زوجه ابنها البكر ، ويؤخذ جيفاكو فيمن يؤخذون ليقوم بأداء واجبه في العناية بالجرحى ، وخدمة أفراد الجيش الذين يصابون في المعارك ، وهنا يقف وجها لوجه أمام الحرب في قبحها ورهبتها ولا معقوليتها٠ يقول بسترناك: « كان جيفاكو قد أخبر صديقه بالصعوبة التي مر بها ليألف المنطق الدموي للابادة المشتركة ، ومنظر الجرحى ، ولا سيما بشاعة بعض الجراح الحديثة التي تترك

الاحياء مشوهين وقد حولهم تقدم التكنيك الحربي الى قطع رهيبة من اللحم » ٠

« ثم تناهى اليه أن موسكو تجتاز وقتا عصيبا ، وهي على أبواب حدث خطير ، وان هنالك نقمة بين الجماهير ، وأن تطورات سياسية على جانب كبير من الخطورة على وشك الوقوع ٠٠

كانت روسيا تغلي كالرجل ، وكانت روائح الثورة تملأ الجو ، وكان الناس عامة والمثقفون خاصة يتوقعون الثورة ، وكانوا ينظرون اليها على أنها الحدث الجلل الذي سينقذ الناس ٠

« وخرج المرضى الذين لم يكونوا مقيدين الى اسرتهم من غرفهم ، وهم يستندون الى عكاكيزهم أو يهرولون صائحين ، وقد حدق بعضهم في بعض :

« أخبار هائلة ! الحرب نشبت في شوارع بطرسبرج! حامية بطرسبرج انضمت الى العصاة ، الثورة ! الثورة !

وهكذا تندلع الثورة عام ١٩١٧ ، وباندلاعها يبدأ القسم الثاني من الكتاب وهو القسم الاهم والاعمق ، وتبدأ الثورة وحوادثها بالتأثير على جيفاكو ٠

حين نشبت الثورة ، كان جيفاكو بعيدا عن أهله ، يقيم في قرية ميليوزئيف ، وفي مستشفى هذه القرية تعرف الى ممرضة تدعى لارا كان مقدرا لها أن تلعب دورا كبيرا في حياته فيما بعد ٠ وفي هذه الاثناء يفكر جيفاكو بالعودة الى موسكو لملاقاة زوجه وابنه ، وفي هذه الاثناء أيضا ، تبدأ طلائع الاضطرابات تعم البلاد ٠ الا أن جيفاكو كان مواليا للثورة معجبا بها ، وقد رحب بها كما رحبت بها الطبقات الوسطى ٠

الا أن طلائع الثورة هذه كانت عنيفة ، ومع ذلك فلم يكن ذلك كله في رأي الثوار الا مقدمات طفيفة لما سيقع فيما بعد ٠ لذا كان الدكتور جيفاكو يستحث الرجوع الى بلدته ليفرخ روعه ، وليجد فيها الطمأنينة ، فقد مرت عليه سنوات ثلاث كانت مليئة بالتغيرات والقلاقل والحرب ، وانه ليتمنى الآن أن يعود الى حقيقته ، الى واقعه ، الى اسرته ، الى نفسه : الى الوجود الحق ٠

ووصل الى موسكو ، وفي طريقه اليها صادف فئات من الناس مختلفة ، كانت تستغل الحرب والثورة فتغتني من اتجارها بالحاجات البسيطة ، وتستغل العذر لتنشىء الثروات ، ورأى الى ذلك ، الضيق وهو يتهيأ ليبسط سلطانه على الناس ، جميع أنواع البقايا والفضلات كانت تباع في السوق كله ، فيرتفع سعرها كلما انتقلت من يد الى أخرى ٠

وكانت ثمة شائعات شتى حول الضيق الذي سيحل بالناس في ذلك الشقاء ٠ ولكن الدكتور يصمم على البقاء في بلاده ٠ انه يحلم بالحياة الهانئة والاستقرار المنزلي، ولكنه الى ذلك لا يريد أن يتخلى عن قومه وينزح عنهم لانه يريد أن يعاني مصير وطنه وشعبه مهما يكن نوع هذا المصير ٠ وهكذا صمم جيفاكو على أن يظل في وطنه ويعاني مصير امته ويعيش أحداث عصره ، وراح يمارس مهنته كطبيب فيعنى بكل انسان كان بحاجة الى عناية ٠ في حين أخذت نيران الثورة تضطرم شيئا فشيئا ، فالقتال يعم الشوارع ونيران المدافع تدوي في كل مكان، والحكومة الجديدة تشكل في بطرسبرج ٠ وازاء هذا الوضع ترك الموظفون والاطباء منهم خاصة عملهم لقلة المرتب ، أما الدكتور جيفاكو فقد ظل في عمله رغم الحرمان والضيق ايمانا منه بواجبه المقدس تجاه اخوته ٠

واشتدت وطأة الجوع والمرض والبرد على الناس جميعا وأصيب الدكتور بالتيفوس فيمن أصيبوا به ، وحين أبل من مرضه ، عزم على أن يترك المدن الكبرى ويسافر مع اسرته الى الاورال، الى املاك جد زوجه، حيث يستطيع أن يعيش ويؤمن قوت اسرته وهكذا ترك موسكو وأم الاورال ، وكانت رحلة الاسرة تلك مضنية ، قاسية مرهقة ، بسبب الثلوج التي كانت تكسو الارض ، مما اضطر المسافرين الى ازاحة الثلوج وتنظيف الخط طوال أيام ثلاثة ، ووصلت الاسرة الى فارينكو حيث كانت تقصد ، فماذا تراها وجدت ؟ « المصانع مغلقة ، والعمال عاطلين ، لا وسيلة للعيش ، لا طعام » ٠ أما أملاك الجد، فقد ذهبت بددا ، ومع ذلك أقامت الاسرة هناك ، وراح جيفاكو يعمل ويرفع بيتا لاسرته ويسجل مذكراته ٠ ولكنه كان يشعر بالضيق اذ يرى نفسه محروما من ممارسة مهنته كطبيب وأديب ٠ ويعود فيلتقي مرة ثانية بلارا في احدى المكتبات العامة ، ثم تصبح صلته بها قوية عنيفة ، فقد كان يحبها ، وكانت علاقته بها تزداد جدية ، وكان هذا الامر فظيعا مستحيلا ، وغدا جيفاكو عرضة لصراع عنيف بين واجبه كزوج وبين حبه للارا ٠ الا أنه لم يستطع أن يستمر في تحمل عذاب الضمير هذا، فقرر أن يقطع علاقته بها وأن يعترف لزوجه بكل شيء، وعقد العزم على أن لا يرى لارا ثانية ٠ وفيما هو عائد الى بيته سمع هتافا ، وفجأة انطلق صوت عيار ناري بالقرب منه ، واعترض سبيله ثلاثة فرسان ، وأجبروه على الذهاب معهم الى المعسكر ، لان طبيب الفرقة قد قتل ، وما على جيفاكو الا أن يحل محله ٠

وهكذا ابتعد الدكتور عن أهله واسرته والتحق بفرقة الثوار ، وراح يمارس فيها مهنته كطبيب ٠ ومرت عليه حوالي سنتين في أسره هذا ، الا أن العمل كان يملأ عليه وقته ، من معالجة الجرحى ، ومداواة المصابين بالتيفوس

، ولم تلبث الظروف أن اضطرت جيفاكو نفسه الى الاشتراك في المعارك التي كانت تدور بين الحمر والبيض. الا أن عنايته لم تكن مقصورة على الجرحى من الثوار وحدهم، بل كان يعنى بكل جريح أبيض كان أم أحمر .

وفي معسكرات القتال رأى جيفاكو أهوال الثورة وكيف ينقلب الانسان ذئبا يفترس أخاه الانسان، ورأى الجرائم الوحشية، وأنواع التعذيب المختلفة التي كان يلجأ اليها كل من الفريقين، فشعر باحتقار كبير للثورة، في حين كان قلقه على اسرته وحنينه اليها وخوفه على مصيرها يزداد يوما بعد يوم، فالاخبار قطعت عنه، والمدينة التي سكنت فيها الاسرة، أجلي عنها سكانها، وليس يعلم الآن أين أصبح مقرها، وما يلاقيها من أخطار وضيق، اذ ذاك قر رأيه على أن يترك المعسكر، ويعود ليلاقي اسرته ولكنه لم يلقى اسرته وانما لقي لارا، وكانت لارا بالنسبة اليه وطنه بكل ما فيه من عناد واسراف وجنون ولا معقولية، ومغامرات دائمة الروعة، وهلاك، والحياة، والحنين الدائم للحياة، للوجود ذاته، فليس في وسع المرء أن يخاطب الحياة والوجود، ولكن لارا كانت تمثلها وتعبر عنهما .

واستطاع الدكتور أن يحصل على وظيفة، ولكنه سرعان ما وجد نفسه عاجزا عن العمل في مثل ذاك الجو الذي كان يحيط به . وبهذا المعنى يقول :

« يبدو انني سأحمل على الاستقالة من وظائفي . الامر ذاته دائما - ففي البدء يسير كل شيء سيرا حسنا : » تعال، نحن نرحب بالعمل الجيد، المخلص، نرحب بالافكار، ولا سيما الافكار الجديدة، ماذا يسرنا أكثر من ذلك ؟ قم بواجبك على أكمله .

ثم لا يلبث أن تجد في الواقع، أن ما يعنونه بالافكار الجديدة لا يعدو أن يكون كلاما فارغا - ثرثرة في مديح الثورة والنظام القائم، لقد تعبت ولم أعد أطيق، وليس هذا بنوع العمل الذي أجيده » .

أما اسرته فكانت قد رحلت الى موسكو، ومنها الى باريس . ولم يلقها الدكتور أبد الدهر . وكذلك ذهبت لارا هي الاخرى ضحية المحامي الوصولي الذي غرر بها صغيرة وحمل والد الدكتور جيفاكو على الانتحار يوما .

وفي نهاية المطاف نجد الدكتور قد أصبح لعبة في يدي القوى التي تتجاذبه، والاشخاص الذين يؤثرون عليه، فتزوج مرة ثانية، وعاش في اخريات أيامه عيشة التشرد، فقد ترك الطب وأهمل نفسه، وتوقف عن زيارة أصدقائه وعاش في فقر مدقع، ولم يلبث أن أصيب بعدد من النوبات انتهت به آخر الامر الى الموت .

هذه هي قصة الدكتور جيفاكو في خطوطها العريضة وملامحها السريعة .

ولنا أن نتساءل بعد هذا العرض، ما موقف جيفاكو من الثورة ؟

لقد فرح جيفاكو بالثورة يوم نشوبها فرحا لا نظير له، كما فرح بها المثقفون جميعا، لانهم كانوا ينتظرون وقوعها، ويعتقدون أنها الحدث الذي سينقذ روسيا من أوضاعها الراهنة، ويغير كل ما كان فيها من سوء واضطراب وفوضى وتأخر .

وبهذا المعنى يقول جيفاكو للارا، وفي حديثه هذا، نلمس فرحه العظيم بالثورة واعجابه الكبير بها :

« تأملي ما يجري حولنا، ونحن نعيش معا هذه الايام، هذا امر لا يحدث الا مرة في الدهر، تأملي روسيا بأسرها ينهار سقفها، وأنا وأنت وسوانا في العراء، وليس من يتجسس علينا . الحرية ! الحرية الحق، لا مجرد التلفظ بها، الحرية الهابطة من السماء، الحرية التي فوق ما كنا نتوقع، الحرية الآتية مصادفة، الآتية عن غير قصد، ولكم يبدو كل شخص هائلا وفي تيه ! ألم تلاحظي، كأنما قد سحق بثقله، باكتشاف عظمته » .

« مساء البارحة، كنت اراقب الاجتماع في الساحة . يا للمشهد الغريب ! امنا روسيا تتحرك، ولا تستطيع التوقف . انها قلقة ولا تستطيع أن تجد راحة . وهي تتكلم ولا تستطيع أن تصمت . ليس الناس وحدهم يتكلمون، النجوم والاشجار تتلاقى وتتحدث، والورود تتفلسف في الليل، والمنازل الحجرية تتنادى الى الاجتماع، وهذا يحملك على تذكر الانجيل، أليس كذلك ؟ أيام الرسل، أتذكرين بولس الرسول ؟ تتكلمون بألسنة كثيرة وتتنبأون . صلوا من أجل هبة الفهم » .

ويضيف قائلا :

« لقد انفجرت الثورة رغما عنا، كتنهدة حبست طويلا، كل انسان تجدد، ولد من جديد، تغير وتحول . يمكن القول بأن كل انسان عانى ثورتين : الثورة الشخصية الخاصة به، والثورة العامة، فكأنما الاشتراكية هي البحر، وكل هذه الثورات الخاصة لا بد أن تعب فيه كالجداول . انه بحر الحياة، بحر العفوية، قلت الحياة ولكنني أعني الحياة كما ترينها في صورة عظمى، تحولت بالعبقرية وغنيت بالابداع، والآن عزم الناس على أن يخبروها، لا في الكتب والصور، بل في أنفسهم، لا كتجريد بل كفعل ..

هذه هي نظرة جيفاكو الى الثورة في أول أمرها . اعجاب بها لا حد له، وايمان بمقدرتها على تغيير المجتمع، وتحرير الانسان من واقعه الاليم البائس، واجتثاث

القروح القديمة المتقيحة من جسم المجتمع ، وتحطيم الظلم القديم الذي تعود الناس السجود له خلال قرون طويلة .

ولكن يالخيبة الامل ! اذا لم يلبث الدكتور جيفاكو أن أدرك أن هذه الثورة التي كان ينظر اليها على أنها « الثورة » ليست في واقع الامر الا ثورة كغيرها من الثورات . ان غاية الثورة كما يفهمها جيفاكو ـ وكما ينبغي أن تفهم في كل عصر ـ هي الانسان . فالثورة وسيلة لتحسين وضع الانسان وتحريره من الظلم والعبودية ، وهي بهذا المعنى حدث انساني ممتاز رائع ، ولكن الخطر كل الخطر أن تنقلب الثورة غاية في ذاتها والانسان وسيلة لتحقيقها . فتصبح الثورة للثورة لا للانسان . وآنذاك يغدو تقتيل الانسان وتشريده وتعذيبه أمرا يسيرا ، وتكون الثورة قد نقلت الناس من ظلم الى ظلم ، ومن عذاب مر الى عذاب أدهى وأمر .

يقول جيفاكو للارا بهذا المعنى :

هل تعرفين سبب هذه الدوامة المستمرة التي لا نهاية لها من الاستعدادات ؟ انها راجعة الى أن هؤلاء الناس يفتقرون الى المقدرة الحقيقية . انهم يشكون العجز والقصور . لقد خلق الانسان ليحيا لا ليهيء أسباب الحياة . ان الحياة ذاتها ـ نعمة الحياة ، هبة الحياة ـ أمر من الجد بحيث يأخذ بمجامع القلب ، اذن فلماذا نستبدل بها هذه المهازل الصبيانية ، هذه المغامرات الخليقة بطلاب المدارس ؟

لقد تجردت الثورة عن معناها الانساني العميق ، الذي يقوم على خدمة الانسان ، وأصبحت غاية في ذاتها . « ان الثوار الذين يستولون على القانون ـ كما يقول جيفاكو ـ ويجعلونه ملك ايمانهم فظيعون ، لا لانهم مجرمون ، بل لانهم آلات جمحت وانطلقت بعيدة عن كل سيطرة كقطار يندفع دون سائقه !

ومن هنا جاءت فظائع الثورة ووحشيتها ، ومن هنا أيضا كان ظلم الانسان لاخيه الانسان ، وليس ثمة ما يبرر الظلم أي ظلم .

يقول جيفاكو : « وكان الغريب يقتل الغريب الذي يلقاه ، خشية أن يبادر هذا فيقتله هو ، وفي بعض حالات منعزلة كان الانسان ينهش لحم أخيه . فقد توقفت قوانين الحضارة الانسانية عن السريان ، وأصبحت شريعة الغاب هي القوانين التي خضع لها الناس ، بل ان الاحلام التي راودتهم كانت أحلام أهل الكهوف في العصور السابقة للتاريخ » .

والرواية حافلة بتصوير فظائع الثورة . فهؤلاء أصدقاء جمعت بينهم طفولة مشتركة ، قلبت الثورة بعضهم على بعض وراحوا يتفانون . وهذا رجل أبعدته الثورة عن أهله وأولاده ، وكان يخشى أن يقع هؤلاء في قبضة العدو فيمزقهم شر ممزق ، وظلت الافكار السوداء تلاحقه ليل نهار وتقض مضجعه حتى أفضت به الى الجنون فالانتحار . ولم تكن النساء بمنجاة من الثورة وأهوالها . فقد اضطررن الى ترك بيوتهن والتشرد . فكانت النساء أول من وقع في اليأس . يقول بسترناك في معرض الحديث عنهن : لقد كانت الامهات الشابات يمشين على أقدامهن محملات بالاكياس والاغراض والاطفال وقد غاض حليبهن ، فخرجن من عقولهن بسبب أهوال النهار ، وتركن أطفالهن ، وأفرغن الذرة من أكياسهن على الارض ، وقفلن راجعات ، لقد قررن أن الموت السريع أفضل من الموت البطيء جوعا ، فآثرن أن يسقطن في قبضة العدو على أن تمزقهن حيوانات الغابة تمزيقا » .

وقل الامر نفسه في بؤس الاطفال والصغار . يقول جيفاكو « ياللاطفال المساكين في العصر الحاضر ، انهم ضحايا حياتنا المشردة ورفقاء اغترابنا القانعون » .

وهذه أرملة حاولت أن تجفف البطاطا وتخزنها في حفرة من الحقل ، ولكن لم يمر شهر حتى كانت المزرعة قد سرقت واختفى كل أثر للارملة ، وفي الربيع وجد الناس المرأة مدفونة في الحفرة التي خبأت فيها البطاطا .

أضف الى ذلك كله المحاكم التي أقيمت لتدين الناس وتتهمهم بشتى التهم الملفقة فتقتص منهم وتنكل بهم . والقرى التي كانت تحرق برمتها .

كيف يستطيع الانسان بعد هذا ان ينظر الى الثورة بعين المحبة والرضا . اذ يرى الثورة قد عادت بالناس القهقرى الى شريعة الغاب والفوضى والاضطراب .

واذا كانت الغاية من الثورة أن تحقق العدالة للانسان وتتيح لانسانيته أن تتفتح وتتجلى ، فكيف تأتي الاحداث من ثم لا لتؤمن ذلك بل لتعذب الانسان .

يقول جيفاكو : « ما أسعد من يستطيع أن يتغافل الى هذا الحد ، فيتكلم عن الخبز في حين أنه اختفى من الارض منذ عهد طويل .. ويتحدث عن طبقات الملاك والمضاربين في حين أنها ألغيت بقانون منذ عهد بعيد .. ويتحدث عن الفلاحين والقرى في حين لم يعد ثمة فلاحون ولا قرى . أليست لهؤلاء القوم ذاكرة ؟ .

واذا كانت الثورة لم تحقق بالنسبة لجيفاكو ما كان يجب أن تحققه بل نشرت الجوع والذعر بين الناس ،

فانها الى ذلك أساءت من جهة ثانية الى أخلاق الناس ، فنشرت الكذب والنفاق وأضاعت فردية الانسان وشخصيته وحاولت أن تعطي الناس جميعا صنيعا ورواسم متشابهة تفقدهم اصالتهم وفرديتهم وبالتالي انسانيتهم ٠

تقول لارا في هذا الصدد : «في تلك الفترة دخل الزيف أرضنا الروسية ، كانت النكبة الرئيسية أصل البلاء الذي حل بنا ، هي فقدان الثقة بقيمة آرائنا الخاصة بنا ٠ فقد خيل الى الناس انه كان من التخلف عن سير الزمن أن يهتدوا بحسهم الاخلاقي ، وأن عليهم أن ينشدوا جميعا في جوقة ، ويعيشوا بأفكار سواهم ، وهي أفكار كانت تدفع دفعا في حلقوم كل فرد وعند ذاك برزت سلطة العبارات البراقة ، لقد ابتلينا بالقيصري والآن بالثوري ٠٠ » ٠

هذه نظرة أبطال الرواية ـ وباسترناك من ورائهم ـ الى الثورة ٠ وهي نظرة قائمة فيها كثير من النقد والتعريض العنيف ٠ ومردها فيما رأينا الى أن الانسان هو الغاية وليست الثورة الا وسيلة لتحسين حياة الانسان ، فاذا ما انقلبت الثورة غاية بذاتها وضمت بالانسان الفرد ، فقد أصبحت نوعا من الوثنية التي لا تألف من تضحية الانسان من أجل صنم من الاصنام أو وهم من الاوهام ٠

ولنتساءل الآن ماذا فعل جيفاكو للثورة ؟ ٠

لقد سار جيفاكو مع الثورة رغم كل شيء رآه فيها ٠ فخدمها بكل جهده ، لانه كان يريد أن يخدم الانسان ٠ وقد رأينا أنه تعمد أن يختار الطب مهنة له ، لانه رأى فيها أوسع مجال لخدمة أبناء أمته ، ولذلك سار مع الثورة ٠ ذلك بأن تحدي الثورة موقف غير مجد ٠ فالثورة قد حطمت الذين عادوها ودمرتهم ٠ كما أنها حطمت الذين أخلصوا لها وضحوا من أجلها بكل شيء ، على عادة الثورات حين تأكل أبناءها ٠ وأوضح مثال على ذلك ستريلينكون زوج لارا الذي هجر اسرته وانضم الى الثورة فماذا كانت نهايته ، راح الثوار يطاردونه فلم يستطع أن يقبل هذه النهاية المشينة فانتحر بنفسه وكفى الثوار مؤونة قتله ٠

من هنا نرى ما في موقف جيفاكو من قوة وتمرد ، ان تمرده يكمن في خضوعه للثورة أي لامته وللانسان ولما هو فوق الانسان ٠ ان استسلام جيفاكو للثورة أقوى من التمرد بل أن فيه كل التمرد ، فاذا كانت الثورة قد خيبت فأله ، فان الانسان ، أي انسان عدوا كان أم صديقا ، أحمر أم أبيض ، لا يزال غاية غايته وموضع اهتمامه ، وفي فصل رائع من الكتاب يصور بسترناك موقف جيفاكو هذا من خصوم الثورة وأنصارها على السواء ، ويشير بوضوح الى نزعته الانسانية التي تريد أن تعانقه الناس عامة على اختلاف ميولهم وآرائهم ٠

لقد اضطر جيفاكو أن يحارب مرة اذ مات عامل الهاتف الذي كان الى جانبه فخف اليه وأخذ بندقيته وذخيرته ثم عاد ليفرغها رصاصة تلو الاخرى ٠٠

غير أن الشفقة منعته أن يصوب الرصاص الى الشباب الذين أعجب بهم ، ولما كان من السخف أن يطلق الرصاص في الهواء فقد أخذ يطلق النار على شجرة يابسة وسط الفسحة حين لم يكن أحد يقف بينه وبين الهدف ٠ كان يتبع اسلوبه القديم ـ يركز نظرة ويحدد هدفه تدريجيا بينما يضغط على الزناد ببطء دون أن يضغط الى النهاية فكأنه لا يريد أن يطلق الرصاصة بالفعل ٠ وهكذا كانت الرصاصة تنطلق في النهاية من تلقاء نفسها ، على غير انتظار ، وكان يصوب الرصاصة بذمته المعتادة على أسفل الاغصان اليابسة فتتفتت وتتناثر حول الشجرة ٠

ولكن حدث مع الاسف ، ما لم يكن في الحسبان ، فرغم حرصه على أن لا يصيب أحدا ، كان بعض الشباب يتحركون ويمرون من وقت الى آخر بينه وبين الهدف لحظة انطلاق الرصاصة ، فخرج اثنان منهم وسقط الثالث قرب الشجرة جثة هامدة ٠

وبعد المعركة انكب جيفاكو يفحص عامل الهاتف آملا ألا يكون قد فارق الحياة ٠ ولكن تبين له ، عندما رفع قميصه وجس نبضه انه ميت ٠

مد جيفاكو يده وسحب التميمة التي كانت تتدلى بخيط حريري من عنق عامل الهاتف كانت تتضمن قصاصة من الورق ممزقة طويت وخيطت بقطعة من القماش ٠

وما أن فتحها الدكتور حتى كادت تتفتت بين أصابعه ، كانت عليها مقاطع من المزمور الحادي والتسعين ، لكن بعض التحريف الذي يطرأ عادة على الصلوات الشعبية التي تحفظ بالترديد فتبتعد كثيرا عن نصها الاصلي ٠

وترك جيفاكو عامل الهاتف وانتقل الى الجندي الابيض الذي قتله ، كان وجه الشاب الجميل يحمل آثار البراءة والألم المتسامح ، وفكر في نفسه « لماذا قتلته ؟ » ٠ وفك أزرار معطفه وفتحها ، انها ولا شك يد أمه هي التي طرزت اسمه وكنيته باحرف رفيعة بخط مستقيم ، وعندما فتح قميصه ظهر صليب يتدلى من سلسلة ، ومدالية وعلبة ذهبية صغيرة مسطحة ، وسقطت ورقة من العلبة التي كانت نصف مفتوحة ، واذ فتحها جيفاكو لم يستطع أن يصدق عينيه ٠ كان عليها المزمور الحادي والتسعون نفسه ٠

وأسعف الدكتور الجريح وألبسه ثياب عامل الهاتف ويسر له سبيل العودة ٠

ان هذا النص يتيح لنا أن نرى بجلاء موقف الدكتور جيفاكو من الثورة والشعب معا · فقد اضطرته الظروف الى أن يحارب ، ولكنه فضل أن يرمي الشجرة اليابسة على أن يقتل أبناء أمته مهما يكن لونهم ، وهو حين يقتل الشاب لا يعرف سببا دفعه لقتله أو مبررا لفعلته تلك · وهو يضمد جراح العدو تضميده لجراح الصديق ، لان هؤلاء جميعا انما هم اخوان له في الانسانية واخوان له من قومه · وآية ذلك هذه التميمة المشتركة التي كان يرتديها كل محارب من البيض والحمر على السواء ·

نستخلص مما سبق ان الرواية كلها تعمر بنزعة انسانية بينة ، وقد تجلت في شخصية البطل الرئيسي وفي شخصية بقية الابطال · هذه النزعة الانسانية التي يحاول الكاتب أن يبسط ظلها على الكتاب هي التي أعطت الرواية قيمتها الكبرى · والى جانب هذه النزعة ، نزعة أخرى لا تقل أهمية عنها واعني بها النزعة الفردية · وأغلب الظن أن هذه النزعة هي التي أقامت النكير على باسترناك في روسيا ·

فبسترناك يعطي الفرد قيمة مطلقة ، والفرد بهذا المعنى كائن انساني ، قائم بنفسه ، ليس رقما من الارقام ولا حملا بين قطيع ، وانما له ذاتيته وشخصيته وحريته · انه صورة عن الله فهو الذي يبحث عن الحقيقة ليقدمها لاخوانه · يقول أحد أبطال الرواية (الخال نيكولاي) :

« الافراد وحدهم يفتشون عن الحقيقة ويوفرون ذلك على الذين يهتمون بكل شيء الا بالحقيقة » ·

وبسترناك في هذا متأثر بالمسيحية تأثرا كبيرا ، لان المسيحية تعطي الفرد أي فرد هذه القيمة الكبرى ، اذ ترى أن المسيح تعذب من أجل كل انسان على حده ، وبهذا خلص الانسان من ربقة العبودية القديمة وحرره · يقول بسترناك :

« فحين يقول الانجيل ان ليس في ملكوت الله يهودي أو غير يهودي ، فهل يعني ذلك أن الجميع متساوون في حضرة الله · كلا — فلم يكن من حاجة الى الانجيل من حل ذلك — فالفلاسفة الاغريق ومعلمو الاخلاق الرومان والانبياء العبرانيون عرفوا ذلك قبل زمن بعيد · ولكن الانجيل يريد أن يخبرنا انا في هذه الحياة الجديدة المليئة بالاسرار ، النابعة من القلب والتي نسميها ملكوت السموات لن نكون أمما أو شعوبا ، ولكنا سنكون أفرادا ·

هذه القفزة من العالم القديم الى العالم الجديد لم تتم الا على يد المسيحية · وعلى هذا الاساس نستطيع أن نفسر ايمان الابطال بالمسيحية واعجابهم الشديد بها ·

يقول نيكولاي خال جيفاكو :

« الى هذه الكومة الباطلة من الذهب والرخام (ويقصد بها العالم القديم) جاء اذ ذاك خفيفا ، متسربلا بهالة ، أقبل انسانا عميق الانسانية ، ريفيا عن قصد ، جليليا · ومنذ تلك اللحظة ، لم يعد ثمة آلهة ولا شعوب ، ولم يعد ثمة غير الانسان وحده · · الانسان النجار ، والانسان زارع الارض ، والانسان الراعي الذي يسوق قطيعه عند مغيب الشمس · الانسان الذي لا يبدو وقع اسمه محفوفا بأمثل فخر — ومع ذلك فهو محور كل أغنية ، وشخصية كل صورة في جميع معارض الفن في العالم » ·

هذا بايجاز العالم الذي صوره بسترناك في روايته الكبرى الدكتور جيفاكو وقد رأينا أن الكاتب استهدف من روايته رسم الحياة في روسيا خلال نصف قرن ، وتصوير الاحداث التاريخية الهامة التي مرت بها البلاد في تلك الفترة ، وذلك من خلال بطل رسمه لنا ، وأتاح لنا أن نتعرف نموه وتطوره وتفاعله المستمر مع الاحداث وموقفه منها ، كما بسط أمامنا مجموعة من النزعات تتسم بالانسانية والفردية والاتجاه الروحي العميق ·

وبسترناك أخيرا يشكل عقدا من سلسلة طويلة في تاريخ الادب الروسي · ففي كتابه هذا ، نلمح الصفحات الاساسية البارزة التي تطبع الادب الروسي كله ، من اهتمام بالارض الروسية ، والشعب ، والحاح على وصف آلام الناس وبؤسهم ، وعناية كبرى بالقضايا الروحية والدينية ·

ان عالمه عالم غني معقد ، يشبه العوالم التي رسمها دوستويفسكي وغوغول وتولستوي ، وهذا العالم تموج فيه نفحات شعرية ، مما يذكرنا بصفاء الشعر الروسي وعمقه وتقديسه للانسان وحبه لطبيعة روسيا ، وصوفيته الطلقة السمحة ·

* * *

يقول همنفواي

ان الاديب يستطيع أن يكفل لنفسه سيرة حسنة — ما دام حيا — اذا هو اعتنق قضية سياسية وعاش يعمل من أجلها ، وجعل اعتناقه لها مهنة ، فاذا فازت تلك القضية ارتفعت مكانته · · يستطيع المرء أن يكون فاشيا أو شيوعيا ، فاذا اعتدل جده ، فقد يصبح سفيرا أو قد تطبع الحكومة ملايين النسخ من كتبه ، أو قد ينال غير ذلك من التقديرات السنية التي يحلم بها الصبية · · ولكن لا شيء من هذه الامور يعينه على أن يكون أديبا الا اذا استكشف جديدا يضيفه بأدبه الى المعرفة الانسانية ·

والحق أن بسترناك اكتشف أشياء جديدة أضافها بأدبه الى المعرفة الانسانية ومن هنا كانت له ولكتابه هذه المكانة ·

حلب — جورج سالم

مرض المرحلة .. والأدب الحديث

بقلم : صدقي اسماعيل

لكل مرحلة في حياة الشعوب جوانب قوتها وأمراضها. ومن مظاهر القوة في المرحلة التي يمر بها العرب اليوم انهم في بداية يقظة قومية جارفة ، وتفتح لحياة انسانية جديدة ، ونزعة عنيفة للتحرر ، وأبرز أمراض المرحلة انها مثقلة بالتزييف والضحالة •

فالحياة العربية المعاصرة تزدحم بمظاهر التطور السريع في شتى الميادين ، وكثيرا ما يبدو هذا التطور أشبه بالانقلابات الفجائية التي تطرأ على المجتمعات في فترات الانتقال ، وتوصف أحيانا بالثورة والتجديد لانها تنطوي على دعوة صارخة للقضاء على الاوضاع الاجتماعية السائدة بتقاليدها وقيمها وأساليب الحياة فيها • وقد يدل ذلك على التمرد والرغبة في التحرر ولكنه لا يعني الثورة في الحقيقة • فليست المرحلة الثورية أن يتغير المجتمع على نحو أو آخر ، أو تتبدل عقلية الشعب ونظرته الى الاشياء، أو تعلن الاجيال الشابة نقمتها على كل مألوف ، بل ان أبسط مبادىء الثورة أن تحمل وجهة نظر جديدة للحياة الانسانية بصورة عامة • والعرب على الرغم من هذه الاندفاعة العنيفة ما زالوا يقلدون الآخرين في كل شيء • فالتقدم الاجتماعي يحتذي أشكال الحياة الغربية في شتى مظاهرها ، والتحرر الاقتصادي يستمد عناصر تطوره من تقاليد المجتمعات الحضارية المتقدمة ، واليقظة الثقافية تستقي من ينابيع التراث العربي القديم أو الفكر الاجنبي، وليس من السهل أن تعتبر الفعالية القائمة على المحاولة والتقليد عملا ثوريا •

ومن ثم فاننا في مرحلة تيقظ وتقليد • وليست الثورة في هذه المرحلة الا مجرد نزعات غامضة في ضمائر الأفراد ، وكل ما يتحول منها الى حقائق اجتماعية ملموسة يحمل دائما طابع التقليد والمحاكاة ، ولكن مرض التزييف في المرحلة نفسها يزين لنا أن نرى في الاشياء العادية ملامح نهضة أصيلة أو ثورة حتمة• ان الثورةوالتجديد والاصالة تعني ابداع قيم جديدة للحياة ليس بالنسبة لنا فحسب ، بل بالنسبة للتراث الانساني بصورة عامة ، وما من مظهر في الحياة العربية المعاصرة ينم عن هذا الابداع ، على الرغم من أن يقظتنا القومية تتيح لنا الثقة بالمستقبل • وليس المستقبل رصيدا يركن اليه في الحكم على أية مرحلة ••

غير أن مرحلة التقليد هذه ، يمكن أن تحمل نظرة ثورية الى كل انتاج ، باسم المستقبل ، وذلك حين تتبين المقاييس الصحيحة في الحكم على الاشياء ، وفي طليعة هذه المقاييس أن تتبين الصدق في الانتاج مهما يكن نوعه، وبتعبير آخر ، أن تميز بين ما هو من صنع المرحلة وبين ما يمثل اندفاعة جريئة الى المستقبل • وتعطينا الحياة السياسية مثالا واضحا على هذا المقياس ، حين تميز بين ممثلي المراحل من الحكام التقليديين وبين الثائرين الذين حملوا السلاح في وجه الاستعمار • ولا يختلف الامر كثيرا في المظاهر الاخرى للحياة العربية ، فهناك ظواهر مرحلية – اذا صح هذا التعبير – وظواهر ثورية لا تؤلف مرحلة الاصالة والتجديد ولكنها تشير أبدا الى المستقبل الافضل •

والانتاج الادبي الحديث في البلاد العربية هو أحد مظاهر المرحلة : تمهيد وتقليد ولا شيء أكثر ، شأنه في ذلك شأن الموسيقى والغناء والفنون الأخرى • وقد يبدو هـذا الحكم ادانة للادب العربي الحديث كله ، لان المفروض في شؤون الثقافة والادب أن تحمل الكثير من تبصر المستقبل وأن تلتمس في عمق التجربة الأنسانية أفقا أرحب يتجاوز حدود المرحلة • وقد كان هذا شأن التجارب الفكرية والأدبية في النهضات الحديثة لكثير من الشعوب • ولكنه لا ينطبق على الحياة العربية في يقظتها الراهنة• فقد كان الانتاج الأدبي متخلفا في الوعي الأنساني والاصالة عن كثير من مظاهر الفعالية في الميادين الأخرى• ومن ثم ما تزال تتردد بحق هذه الدعوة : نريد أدبا في مستوى التجربة الانسانية التي نحياها • وليس غريبا أن مثل هذا الادب لم يوجد بعد ، فالمرحلة لم تزل مرحلة تعلم وتمهيد • ولكن الغريب ان ينجرف الأدباء والنقاد في مرض المرحلة فيضعون المقاييس ويفترضون التجديد والخلق في اشتات مبعثرة من الانتاج الادبي لا تنتظمها تجربة أدبية أصيلة •

ولا يعني ذلك انه ينبغي أن ندين كـل انتاج معاصر باسم الاصالة والتجديد ، كما يفعل عـادة غلاة الداعين الى الثقافة الاوروبية مثلا أو الى التراث العربي القديم ؛ بل أن تفتح الادب المعاصر وحماية الخط التقدمي السليم الذي يجب أن يسير فيـه ، يفرضان المقاييس النقديـة الصارمة في الحكم عليه •

واذا كـان الصدق أول هـذه المقاييس فهو يعني في الواقع ادانة للقيم الادبية الزائفة التي تفرضها المرحلـة في كثير مـن الاحيان • فليس ما هو أصعب في مجـال الادب من معرفة التقليد مثلا في الدوافع الوجدانية التي تصدر عنهـا قصيدة من الشعر الحديث ، أو قصـة أو رواية تبدو جديدة مبتكرة بالنسبة لتذوق الجمهور أو لتاريخ الادب العربي ، ولكن النظر اليها من خلال القيمة الانسانية للتجربـة التي أملتها على الشاعر أو الروائي ، في كل حين ما تنطوي عليه من الارتباك والضحالة• ومن ثم فان القارىء العادي ، عـلى الرغم مـن ضعف تربيته الفنية ، لا يتردد في التأكيد بانه ما من اديب عربي معاصر أعطى تجربة أدبية فذة بالنسبة لحركـة الثقافة العالمية ، على الرغم من مظاهر الجودة في انتاج الكثيرين ••

ولا ريب أن هناك مبررات كثيرة لتخلف أدبنا عـن الابداع الذي تضع لـه أصالـة الاداب العالمية شروطـا قاسية ، ولـكن لا شيء يبرر انـكار التخلف ولا سيما بالنسبة للادباء أنفسهم •فكثيرون منهم قد أخذوا بمرض المرحلة فتوهموا الجدة في انتاجهم دون أن يتبينوا المكانة الحقيقية لهذا الانتاج • وكثيرا مـا يلعب الزمن دورا كبيرا في تأكيد هذا المرض وانتشاره ، اذ أن كـل جيل ناشـىء يرى نفسه ملزما بالتتلمذ على الاجيـال السابقة والاقتداء بالـكبار باعتبارهم بدايات مع أنهم في الحقيقة ممثلو مرحلة لا أكثر ، ان لم يـكونوا ظواهر عاديـة للتطور البطيء في تاريخنا الادبي ••

ولم تنجح الاجيال الناشئة من مرض التزييف أيضا• بل أن نمو النزعات الثورية في الحياة العربية جعلها أكثر تناقضا واضطرابا • فالمعروف أن روح الثـورة والتمرد توقظ في الانسـان فرديته الجامحـة ، وتجعل الدافـع الوجداني الذاتي أقوى معيار في الحـكم عـلى الاشياء • ومن ثم كـانت تنمو في الناشئين قافلة بعد قافلة ، نزعـة الجهل بطبيعة المرحلة وتوهم الجدة والابتكار في الانتاج العادي المقلد ، واضفاء البراعة الذاتية على ادعاء الانانية وما تجره من ضوضاء الغرور ••

السينما وعلم الاجتماع

تعريب : الثقافة
بقلم : پول ميننوت

في نهاية دراسة عن نواحي الجمال في السينما كتب مارلو يقول : « والسينما من وجهة ثانية هي صناعة بكل معنى الكلمة » .

وعلينا أن نفتتح كل دراسة اجتماعية عن السينما بملاحظة كهذه بل علينا أن نؤكد بتصميم أن السينما هي بصورة جوهرية صناعة قبل كل شيء . وقد نستطيع أن نختار الافلام لقيمتها الجمالية أو لمعناها الانساني وقد نستطيع ارتياد نوادي السينما بكثرة كما نستطيع أن نقرأ برامج السينما فلا نخرج من كل ذلك عن الاقتناع بأن النشاط السينمائي تهيمن عليه قوانين السوق وتوجهه. وما خلا بعض استثناءات نادرة ، فان الشريط السينمائي لا يصور وينتج ويخرج ويوزع الا هنالك تقديرا باستجابته لرغبات الجمهور وبتحقيقه ربحا ماديا مؤكدا .

قد يكون هنالك بعض الخطأ اذ أن عددا كبيرا من الافلام لا تحقق النجاح التجاري المقدر لها . وقد يكون الفيلم عملا فنيا أو عملا يستهدف ابراز عبر ونتائج الا أن ذلك لا يحول دون سيطرة الناحية الاقتصادية على تفكير المنتج ولنلاحظ أيضا أن قيمة الفيلم الجمالية ومعناه الانساني - ككل نتاج انساني - لا تتوقف جوهريا على ارادة الذين أخرجوه الى حيز الوجود اذ أنها لا تظهر الا بعد الانتاج . ومن أراد أن يجعل من الفيلم عملا فنيا لا يتحتم أن يكتب له النجاح في الوقت الذي يصفق النقاد عاليا للقيمة الجمالية ، أو للمعنى الانساني المتمثلين بأفلام كأفلام « هتبشوك » وهو المهتم قبل كل شيء باتقان مهنته وباثارة اعجاب الجماهير .

في كتاب (ر . اسكاربي) (علم اجتماع الادب) نستطيع أن نميز بما يتعلق بالآداب وجود حيز أدبي محض يسيطر عليه الاهتمام بالتعبير، ووجود حيز تجاري تسيطر عليه مقتضيات السوق التجارية. والكتاب والقراء والوسطاء بينهما يختلفون في الحيز الاول عنهم في الحيز الثاني . كذلك لا بد من التمييز ذاته في ميدان الموسيقى والفنون الجميلة .

هذا التمييز ذاته أيضا يتلاشى كل التلاشي في ميدان السينما اذ أن العنصر التجاري فيها هو أشد وطأة بصورة عامة وذلك بسبب العمليات المتعددة التي يتطلبها الانتاج الفني وتوزيعه . ولم يقل « مارلو » بأن السينما هي عمل تجاري فقط بل قال : انها صناعة. وهذا ما نفهمه وندركه عندما نقدر أهمية التجهيزات والمراحل اللازمة لانتاج فيلم من الافلام .

ابتداء من هذه النقطة لا ندهش من أن عددا ضئيلا جدا من الافلام يتمتع بقيمة جمالية وبمعنى انساني بل ان العكس يثير دهشتنا ولا سيما اذا ما لاحظنا حداثة السينما ولاحظنا بأنها - ككل شيء جديد - يمسك بمقدراتها اناس مغامرون مكافحون . واذا لاحظنا أخيرا بأن السينما العالمية قد تطورت بقسمها الاكبر في مدينة هوليود وفي وسط لم تكن تقاليده الجمالية في مستوى قوته الاقتصادية نتأكد من صحة هذا الرأي .

وفي كل الاحوال ان الطابع التجاري والصناعي لا يمنعنا من القيام بدراسة عالمية اجتماعية تستند على التمييز بين الظروف الاجتماعية للسينما من جهة وبين تأثيرها على المجتمع من جهة ثانية فهذه وتلك ترتبط كل الارتباط وتفكير المنتجين يسيطر عليه الى حد كبير جدا ما يتوقعونه من الجمهور .

لهذه الاسباب جميعا سنكتفي بطرح مشاكل ثلاث نختارها من عدد المشاكل الكبير التي تدخل في نطاق دراسة علمية اجتماعية كاملة للسينما :

آ - الى أي مدى تتسم السينما بطابع دولي عالمي ؟ والى أي مدى تسهم في توحيد البشر عبر حدود الاوطان؟

ب - الى أي مدى تلتقي الخصائص المشتركة بين الافلام ؟ أو الى أي مدى تتباين وتختلف ؟

ج - ما هو تأثير السينما في الجمهور ؟

السينما واقعة عالمية

عندما يسافر المرء وينتقل من بلد الى آخر يلفت انتباهه طابع السينما العالمي وان لم يكن ذلك في مستوى العالم كله فعلى الاقل في مناطق وبلدان مختلفة تبدو السينما فيها ذات وجه مشترك • وهنا نتساءل : ألا تسهم السينما في تقارب البشر عبر الحدود وفي توحيد الجنس البشري ؟

من الناحية الخارجية نلاحظ دور السينما قائمة في العالم كله على مقربة من الجوامع والكنائس ومعابد البوذيين وعلى مقربة من ناطحات السحاب ، كما يلاحظ وجودها على مقربة من أماكن تكاثف السكان ، وبأنها تتشابه كثيرا بمظهرها الخارجي • واذا كانت أول سيارة أخرجت تشبه عربات الخيل فأول دور بنيت للسينما تشبه المسارح •

واذا كنا نجد دور السينما في كل مكان (أو على الاقل في الامكنة التي تبلغ فيها التجمعات البشرية أهمية ما) ، فذلك يثبت بأن السينما لها جمهورها في كل مكان لا هواة قلة فحسب • وارتياد السينما يتفاوت حسب التكاثف والبلدان • وان رواد السينما لا يشاهدون كلهم الافلام ذاتها ونجوم السينما أنفسهم الا أن بعض الافلام « ذهب مع الريح مثلا » قد شوهد في كل مكان وشخصية « سكارليت أوهارا » تكتسب طابعا عالميا شاملا • ومما لا شك فيه أن الافلام المعروفة عالميا هي قلة ، ولكن معظم البلدان تفتح شاشات السينما فيها الى منتجي افلام متنوعين وبلدان وأمكنة مختلفة • فأوروبا الغربية لا تتغذى فقط من أفلام افرنسية أو انكليزية أو ايطالية أو المانية بل أيضا من أفلام قادمة من شمال أمريكا ومن السويد ومن روسيا وحتى من جنوب أمريكا ومن الهند واليابان •

ان الافلام لا تنتقل عبر الحدود من بلد الى آخر لانها صنعت لتنتقل وان المنتج لا يستطيع عادة أن يحدد مدى انتاجه في حدود بلده بل عليه أن يتصرف بطريقة تمكن فيلم من أن يكون متجاوبا مع جمهور عالمي وبالتالي أن ينزع عن الفيلم كل ما من شأنه أن يصدم معتقدات البلدان الاجنبية ومشاعرها أو على الاقل معتقدات المناطق التي تشكل سوقا لفيلم • وان اللغة يمكن دون شك أن تكون حائلا دون انتشار الافلام ولكن الصور تتكلم من تلقاء ذاتها والترجمة والعناوين الصغيرة تساعد على وجود حد ادنى من الفهم ، حتى أن المفردات وطريقة التعبير في الحوار هي من البساطة بحيث يسهل فهمها كثيرا •

هكذا تنشر السينما في بلدان أخرى المشاهد وبعض مظاهر طريقة التفكير التي يتميز بها البلد منتج الفيلم • ولكن بعض هذه البلدان ولا سيما هوليود يمتد مجال انتاج أفلامها عبر البلدان المختلفة فهي لا تكتفي باعطاء صورة عن ذاتها أو عن البلدان القريبة منها بل تمضي وراء مشاهد ومواضيع جديدة في بلدان بعيدة • وهكذا يستطيع رواد السينما مثلا أن يتعرفوا الى بلدان متنوعة من العالم، فساكن دمشق الذي يرود السينما مثلا يستطيع أن ينتقل بواسطة الافلام الى عدة مناطق من الولايات المتحدة والى المكسيك واسبانيا وباريس والشاطىء اللازوردي ، وأن يتجول في ملاهي أوربا المتنوعة وفي تركيا وفي أفريقيا • ومع أن هذه المشاهد سطحية اذا ما قورنت بوقائع الحياة الا أنها تحمل الى رواد السينما بعض المادة التي يمكن له بها معرفة سابقة • وان العناصر الاولية والجوهرية في السينما « نجوم السينما » تتسم أيضا بطابع عالمي فهوليود بصورة خاصة قد استدعت عددا من النجوم الاوروبية واستخدمتها في أهم أفلامها وأكبر الامثلة على ذلك « غريتا غاربو، ومارلين ديتريش، وشارلي شابلن وجينا لولو بريجيدا وغيرهم » •

واذا كان المنتجون الاوروبيون قد ركزوا أهدافهم في داخل بلادهم فالوضع الذي يتطور الآن يميل نحو الانتاج العالمي • والافلام ليست بصورة مطلقة افرنسية أو ايطالية أو المانية بل هي (افرنسية ـ ايطالية) و (افرنسية ـ المانية) ، و (ايطالية ـ اسبانية) الخ ••• وهذا لا يتأتى عن مصدر رءوس الاموال منتجة الفيلم

بل عن اختلاط النجوم والمشاهد والمواضيع • وان الفرق السينمائية تنتقل من بلد الى آخر ومن أدنى أوربا الى أقصاها سعيا وراء مشاهد ملائمة للفيلم أو مشاهد جديدة تدفع في سبيلها أثمانا بالغة •

ان طابع السينما العالمي تدعمه وتقويه مجالات أخرى في النشاط كالتصوير في حد ذاته وكالاسطوانات التي تؤدي موسيقى الافلام كما أن الصحافة العالمية تحمل صدى أبناء السينما ونجومها الى كل أنحاء العالم من موت ج فيليب الى ميلاده نيقولا شاربيه بارود • ومع ذلك فانتشار السينما على الصعيد العالمي له حدوده وكما قلنا سابقا ان كل الافلام لا تشاهد في كل البلدان وهذا ما قد يصبح ممكنا اذا ما قدرنا أهمية الانتاج العالمي الذي يبلغ سنويا ١٥٠٠ وحدة سينمائية •

كيف يتحقق الاختيار ؟

ان الافلام في بعض البلدان كالولايات المتحدة وفرنسا والبلدان العربية تنتج بطريقة الاختيار ، كذلك في أكثر البلدان انتاجا للفيلم نرى أن معظم الافلام يتحقق انتاجها في البلد ذاته وأكثر الافلام التي يشاهدها سكان هذا البلد من انتاج مواطنيهم • والامر يختلف في البلدان التي لا يكفيها انتاجها الذاتي فتلجأ الى سد حاجتها من الافلام من الخارج كالبلاد العربية مثلا وهولندا وبلجيكا • ومع ذلك فالبلدان المفتوحة أمام الافلام الاجنبية لا تعرف نموذجا دقيقا يمثل الانتاج العالمي • فهنالك عوامل تجارية وتقاليد تفضل انتاج بلد على انتاج بلد آخر ، كما أن هنالك عوامل سياسية تدخل في الموضوع • فالاختيار ناتج عن هذه اللعبة غير الواضحة والتي يقوم عليها الاتفاق بين المنتجين أو كبار الموزعين أو المستثمرين المحليين • وغالبا ما نرى أن الافلام ذاتها يختلف تلقي الجماهير لها وتفهمها وتمثلها بين بلد وآخر • ولنتأكد من ذلك يكفي أن نقارن بين ريع فيلم مثلا في باريس وريعه في نيويورك حتى بين ريعيه في مدينتين من البلد ذاته •

ان رواد السينما يتلقون الفيلم ويحسونه بكل خبرتهم وعاطفتهم الشخصية ولكن في الوقت ذاته بالخبرة والعاطفة التي تتميز بهما بلادهم وثقافتهم • فاباحية الافلام الفرنسية (في الموجة الاخيرة) لا يمكن أن يتلقاها المشاهد الاجنبي كما يتلقاها الفرنسي الذي يرى فيها بعضا من تقاليده المتحررة من كل قيد •

وهنالك أيضا أفلام يقدرها الاجنبي ويتلقاها كما يقدرها ويتلقاها سكان البلد المنتج لما يراه من التقارب بين واقعه وآماله وواقع حوادثها ومشاهدها •

ثم أن ردود الفعل الفردية لدى المشاهدين تدعمها تقديرات النقاد وما يوحونه الى قرائهم •

وأخيرا لا نستطيع أن ننكر الاهمية التي يكتسبها الفيلم من الناحية النفسية بادخاله في حلقة معينة من أفلام أخرى ولا ننكر أيضا ردود الفعل لدى المشاهد عندما يربط هذا الفيلم بأفلام أخرى مشابهة أو مختلفة قد رآها وتركت في نفسه أثرا • والفرق بدهي بين الاثر الذي تركه أفلام فرنسا الاباحية الجديدة وبين أفلامها الرصينة القديمة عند المشاهد نفسه •

وهكذا لا نرى أن الافلام تصور وتظهر في كل مكان ما خلا بعض الاستثناءات النادرة ، كما نرى أن الفيلم ذاته المعروض في أمكنة وبلدان مختلفة يثير ردود فعل مختلفة وهذان الامران يساعداننا على تقدير ما بلغته السينما من أثر على الصعيد العالمي •

وحدة السينما وتنوعها

السينما في رأي بعضهم أمر متشابه واحد وذلك لكثرة ما يشاهدون في الافلام المعروضة من خصائص مشتركة والذي لا شك فيه أن السينما قديما تبدي الى حد كبير تشابها في الخطوط والخصائص والرأي ذاته يصدق بالنسبة الى انتاج البلدان الجديدة في صناعة السينما • كما يبدو في الوقت ذاته – وفي أكثر البلدان تقدما أن السينما تظهر قدرة عجيبة على التجدد ، قدرة قادرة على الاخراج المتنوع المتعدد •

ومن الناحية المادية بكل معنى الكلمة ان مدة التصوير

البالغة حوالي ١٠٠ دقيقة تكادلاتتبدل أبدا الا أننانلاحظ بعض الافلام التي تبلغ مدة أطول كما نلاحظ أفلاما أخرى أعدت للتلفزيون وتطلبت مدة أقصر من ذلك .

عندما خلف الفيلم الناطق الفيلم الصامت توقفت فجأة كل الافلام الصامتة لكن تحقق نواحي تقدمية من الوجهة الفنية كالافلام الملونة والسينما سكوب لم يؤد الى ما أدى اليه ظهور الفيلم الناطق بالنسبة للفيلم الصامت . لذلك نرى ماديا ان التنافس قائم على الشاشة في العالم كله بين أفلام يختلف مظهرها الخارجي ويتنوع كثيرا .

كذلك يصح القول عن وسائل الاخراج وتجمعها ، هذه الوسائل المستخدمة حاليا في يومنا هذا والتي تعبر عن اختلاف وتنوع في الشكل . أما من حيث المحتوى فمهما أمكن التمييز يبقى (كما يستطاع تحليله) متبعا أحيانا طرقا فنية تتسع خطوطها يوما فيوما ويقوم على توسيعها علماء في علم النفس والاجتماع .

ان السينما تمتلك دونما شك هذه المشاهد الممتازة وتعبر عنها في الوقت ذاته ، فهي تعطيك مشاهد عن باريس والشاطىء اللازوردي ، ولندن تحت المطر وشيكاغو والصحراء العربية رغم كل ما بين هذه المشاهد من تنوع . الا أن تنوعها يميل نحو الاتساع والازدياد حتى اذا كانت المشاهد الجديدة تتخذ بسرعة طابع المشاهد التقليدية . فهناك « سانتروبيز » التي تتبع بمشاهدها (نيس) و (كان) وهناك مشاهد متنوعة من مدن أمريكية صغيرة تبدو على الشاشة بملامحها المميزة : ان السينما تكتشف أو تكاد تكتشف اليابان وأفريقيا السوداء . وتتميز من وجهة أخرى المكانة الاساسية التي يمنحها العالم السينمائي لنجومه وهم الاشخاص الذين يستهلك وجودهم على الشاشة حياتهم الخاصة ويتحمل عبأها وهم أولئك الاشخاص المدربون المصطفون تظهر أفلامهم المتتابعة على الشاشة (بأساليب وطرق متنوعة) شخصياتهم الدائمة المستمرة . ولقد استطاع الكاتب (آ. سوكلر) أن يظهر استمرار النظرة الى المرأة وقوتها في السينما الامريكية .

الا أن هذه النظرة في تقدير المرأة بدأت تتغير وتتباين وتتعقد . وكل نجمة منهن تعرف تطورها الخاص، تطورا يبدأ من نجاحها الى بدء الشك في هذا النجاح . ولذلك نرى عددا من النجوم يحاولن الهرب من شخصيتهن ولو أدى ذلك الى دخولهن مستوى الممثلات الهزليات كما فعلت (مارلين مونرو) و (بريجيت باردو) ويبدو أن السينما تميل بطريقة أسهل الى احلال وجوه جديدة وممثلين وممثلات جدد لم يختاروا ويدربوا كما اختيرت النجوم الكبيرة ودربت وان كلمة نجم يتضاءل استعمالها يوما بعد يوم وهذا ينم على الاهمية التي تتضاءل تدريجيا لهذه النجوم وعن الدور المدعوات له والذي يزداد دقة

ان السينما تدفع بعض المواضيع أحيانا الى أشخاص ممتازين وفي فترات ومواسم معينة كقصص (الحلقة السوداء) أو القصص القائمة على أساس تحليل نفسي أو كترجمة حياة الكتاب المشهورين والقصص المستقاة من الادب القديم . وقد يستدعي الامر أن يكلف الفيلم لهذه الاسباب مبالغ طائلة ، أو يتطلب ممثلين تحدد مدة استخدامهم لفترة موقتة ، كما يجب دون شك ارضاء الجمهور الذي يرغب في الجديد ولكنه جديد يشبه القديم الى حد كبير . وعند خلو المجال من توجيهات أو تعليمات أوضح عن مصدر نجاح الفيلم التجاري وأسبابه يبدو من المعقول أن نقف عند ريع هذا النجاح الذي تزيد في قيمته الخبرات السابقة .

كل ذلك لا يمنع مدى نجاح الفيلم من فقدان قيمته في رأي الجمهور ، حتى أن المواضيع التقليدية ذاتها في الافلام لا تجد منأى من التجدد الذي يبدل في مدى انطلاقها . وأفلام (ويستيرن) ذاتها تتخذ أحيانا بعض ألوان التحليل النفسي أو تحمل المتفرج على الانتقال الى صف الذين اعتاد أن يرى فيهم أعداء له .

هكذا تصل السينما الى تصوير مواقف وحوادث تاريخية ونزاعات جديدة ومعقدة ولا ريب أنها أيضا تحتفظ بمكان ممتاز لنزاعات قد أصبحت تقليدية في السينما كما أصبحت تقليدية في الادب الشعبي ، كمواضيع تردد

امرىء أو امرأة بين الهوى الطاغي والعلاقات الشرعية ، أو التردد بين حبين وتردد الفنان بين حياته كفنان وحياته الخاصة • ولقد تجرأت السينما على مجابهة مواقف ومواضيع جديدة وان كان ذلك تلميحا لا تصريحا كمواضيع معتقدات العرقية (ومرونة الواجب) ومآسي الطموح والحب الجنسي الشاذ • كما استطاعت السينما أن تعطي فكرة أولية عن أكثر القصص التاريخي رسوخا في التقاليد •

قد نستطيع المضي في هذا التنوع وهذا الغنى في العالم السينمائي وأن نحاول التكهن عن الاجواء والسبل التي تمضي بها السينما ، هل هي عقائدية سيتولوجية أم واقعية ؟ وهل هي تراجيدية أم دراماتيكية ؟ وقد نكتفي في هذا المجال من ابراز العوامل الاجتماعية التي تستطيع أن تفسر الى حد ما أسباب تنوع السينما •

نستطيع عند التعرض لهذه الاسباب أن نذكر في أولها ارتفاع المستوى الثقافي العام • فالمنتجون والمخرجون والممثلون والممثلات أنفسهم مع كل الذين يساهمون في اخراج الفيلم هم أكثر ثقافة في أيامنا من زملائهم سابقا ما خلا بعض استثناءات نادرة • وان مستوى الجمهور الوسطى قد تحسن بصورة مرموقة خلال الثلاثين سنة الاخيرة كما أن رواد السينما عام ١٩٦٠ يتناقص منهم عدد الاميين كثيرا عن روادها في أول عهدها • يضاف الى ذلك أن النقد السينمائي أصبح أكثر تشددا فقد ظهر للسينما نقاد شديدو المراس استطاعوا أن يحدثوا رد فعل قوي حيال كثير من المواضيع والمشاهد والنماذج السينمائية •

وكما قلنا سابقا يبدو أن المنتجين قد شعروا بأن الربح السهل التناول أو الفوز القريب ينطفئان بسرعة • وقد يكونون قد أحسوا أيضا بأن تنوع الجماهير من رواد السينما واختلاف أثر الفيلم الواحد فيهم في العالم كله يزداد تدريجيا ولذلك لن يتجرأوا ابتداء من هذا أن يطمحوا الى انتاج افلام ترضي جماهير الغرب وحدها أو جماهير الشرق وحدها أو ترضي الطبقات البرجوازية وحدها أو الطبقات الشعبية وحدها أو الى أفلام ترضي التقليديين المحافظين أو المفتونين بكل تبدل وتغير •

وان هذا الادراك يدعمه النقد الاقتصادي الذي تحسنه جيدا الصناعة السينمائية على الاقل في أكثر البلاد تقدما وحيث يعيش منتجو الافلام • فلقد تضاءل عدد رواد السينما في معظم هذه البلدان في السنوات العشر الاخيرة الى الثلث • ولا شك أن التلفزيون كان كعنصر منافس من أقوى هذه العوامل ولا شك أيضا أن الميل نحو مشاهدة المباريات الرياضية والميل الى الاسفار وقضاء عطل الاسبوع في الريف والهواء الطلق من هذه العوامل أيضا •

ومهما كان الامر فالصعوبات الاقتصادية الحالية التي تواجه الصناعة السينمائية تثير نقاطا جديدة وقمينة بأن تحقق خصبا كبيرا في عالم السينما •

السينما وأثرها في الجماهير

الى أي مدى تؤثر السينما أو بتعبير أصح الافلام في الرواد الذين تزدحم بهم دور السينما والى أي مدى تسهم السينما في تطويرهم ؟ هذا سؤال لا يمكن التهرب منه عند التصدي لدراسة السينما من وجهة نظر علم المجتمع، ولكن لا يمكن في الوقت ذاته ، — وبسبب فقدان الدراسات العميقة والمتعددة — الا أن نطرح بعض أسئلة ونناقش بعض آراء قبلت دونما مناقشة • ان الفيلم كما رأينا لا يلقاه الجمهور بالصورة ذاتها في القاهرة كما يلقاه في نيويورك ولا يلقاه في أواسط آسيا كما يلقاه في قرية من صقلية ، كما أن الفيلم لا يحدث الاثر ذاته بين عرضه صباحا أو عرضه مساء وبين عرضه آخر الاسبوع أو عرضه خلاله • كما يختلف أثره بين عرضه دفعة واحدة وعرضه مجزءا • واذا كانت مشاهدة فيلم من الافلام مشاهدة مشتركة قد تقرب — الى حد ما — بين جميع الذين يشاهدونه ومنهم زمر الرفاق ، ومنهم العشاق كل مع من يحب ، ومنهم الاسر التي خرجت كل منها لتشهد الفيلم ، فالاثر الذي يحدثه الفيلم في الافراد الذين يشاهدونه منعزلين يختلف كل الاختلاف •

ومهما كانت عوامل هذا التمييز فلا بد لنا من تقبل الفكرة القائلة بالتأثير المتزايد الذي يحدثه الفيلم في جميع الذين يشاهدونه وللبرهان على هذه الحقيقة يكفينا أن نلاحظ فقدان الاحاديث الشخصية والوشوشات أثناء عرض الفيلم • وقد تفسر عوامل أخرى هذا التأثير ومنها الظلام الذي يسود دار السينما وتجمع هذا العدد من الرواد المتقاربين المتباعدين في آن واحد • ومنها الطابع العام الذي يتخذه عرض الفيلم ، وقد يكون منها استعداد النظارة الى الانفعال ونسيان أنفسهم •

هكذا لا يمكننا انكار التأثير العميق الذي يحدثه الفيلم أثناء عرضه ، ولكن الى أي مدى يدوم هذا التأثير ؟ هل يرسخ في حياة رواد السينما ؟ وكأني بأولئك الرواد لا يتقبلون هذه امفكرة وهم الذين نرى ردود فعل الفيلم فيهم عند الخروج من الصالة وقد بدا عليهم أنهم يحاولون الهرب من هذا الجو الذي تركوه منذ لحظات • واننا نستطيع أن نتساءل فيما اذا كان الحلم الذي تسببه مشاهدة فيلم من الافلام لا يستجيب لاحلام النظارة أكثر من استجابته لحياتهم اليومية •

ان السينما بالنسبة الى المتفرج العادي (وهو أكثر عقلانية مما يصورونه أحيانا) تظل في نطاق التخيل ولا يستقي منها الا صورة بعيدة جدا وغير مباشرة بعض

عناصر حياته اليومية . وان هذا المتفرج العادي ليستقي على الاقل وبقدر حاجته من الفيلم لحياته اليومية عناصر اطلاع ومعلومات جديدة تتراوح بين الصحة والخطأ. وقد يتعرف دونما شك من خلال الافلام التي يشاهدها الى بعض مظاهر الحياة وأنواعها في شعوب يجهل كل شيء عنها ، وقد يميز خلال الفيلم العنصر الرئيسي لمشكلة ما من مشاكل الساعة . وان الطلاب الذين أخذهم الهوس بأفلام (الويسترين) وبين ما بقي في أذهانهم من تاريخ أمريكا في القرن التاسع عشر . ومما لا شك فيه أيضا أن الفيلم قد ساهم (الى حد كبير وعلى الصعيد العالمي أو على أصعدة دونه اتساعا) في انتشار هذه العادات أو تلك وهذه الطرق في السلوك أو غيرها . كما ساهم في انتشار الجديد من أنواع الثياب أو تصفيف الشعر ، أو طريقة التقبيل .

ان كل ذلك لا ينكر حدوثه وأثره فقد أصبح تأثير السينما في هذه المجالات ثابتا واضحا . وهنالك من يؤكد أن السينما تميل الى تبديل القيم والمفاهيم تبديلا عميقا والى معتقدات شعوب العالم ذاتها . وقد يكون هذا الامر صحيحا بالنسبة الى السينما التي تدعم دعاية الدولة الرسمية . وفي هذه الحال لا تكون السينما الا أداة في مجموعة جهاز قوي يسيطر عليها ويسيرها كما يشاء . هنالك أفلاما ذات مواضيع أو فكر موحية الا أن الفكرة أو الموضوع تظهر الدعاية لهما واضحة بصورة تحمل المتفرج العادي ذاته على تجنب التأثر بها أو أن المخرج ذاته قد أظهر التنافر والصدام بين فكر مختلفة لا يستطيع المشاهد أن يختار أو أن يحبذ منها احداها .

ومن فيلم الى آخر نشاهد مفاهيم متباينة فالبطولة الحربية والوطنية تمجدها بعض الافلام أصيانا وأخرى تضعها موضع الشك والتساؤل وكذلك (حقوق الحب) ولا سيما الحب الاباحي الذي تسبغ عليه بعض الافلام صورا محببة ، كل هذه الامور تخضع في الوقت ذاته لعوامل أخرى تخفف من تأثيرها . والفيلم لا يحتوي بالنسبة للمتفرج على أفكار متباينة فحسب بل ان تتابع الافلام تزيد في هذا التباين وخاصة بالنسبة الى المدمن الذي يظنونه أكثر خضوعا من سواه لتأثير السينما .

هكذا يبرو لنا أن القاء بعض الامراض الاجتماعية على كاهل السينما شيء لا يخلو من الصور المبتذلة أحيانا عديدة وبما يمكن أن تحدثه هذه الصور من تأثير سيء على الشباب أمر واقع ولكن مما لا شك فيه أيضا بأن بعض الشبان المنحرفين يتسرعون في اسناد سوء تصرفاتهم الى السينما .

لهذا كله لا بد علينا أن نحذر ونتحفظ في التسرع من الحكم على السينما وأن نعزو اليها كل هذه المساوىء مما يلقي عنا عناء التفتيش عنهـا في منابعها الحقيقية مـن حيث مساوىء الشباب وغيرها من الامراض الاجتماعية ، كمساوىء السكن وطرقـه وتفكك الاسرة ، وعدم تلاؤم المجتمع الصناعي مع الشباب حين مواجهتهم له الخ ..

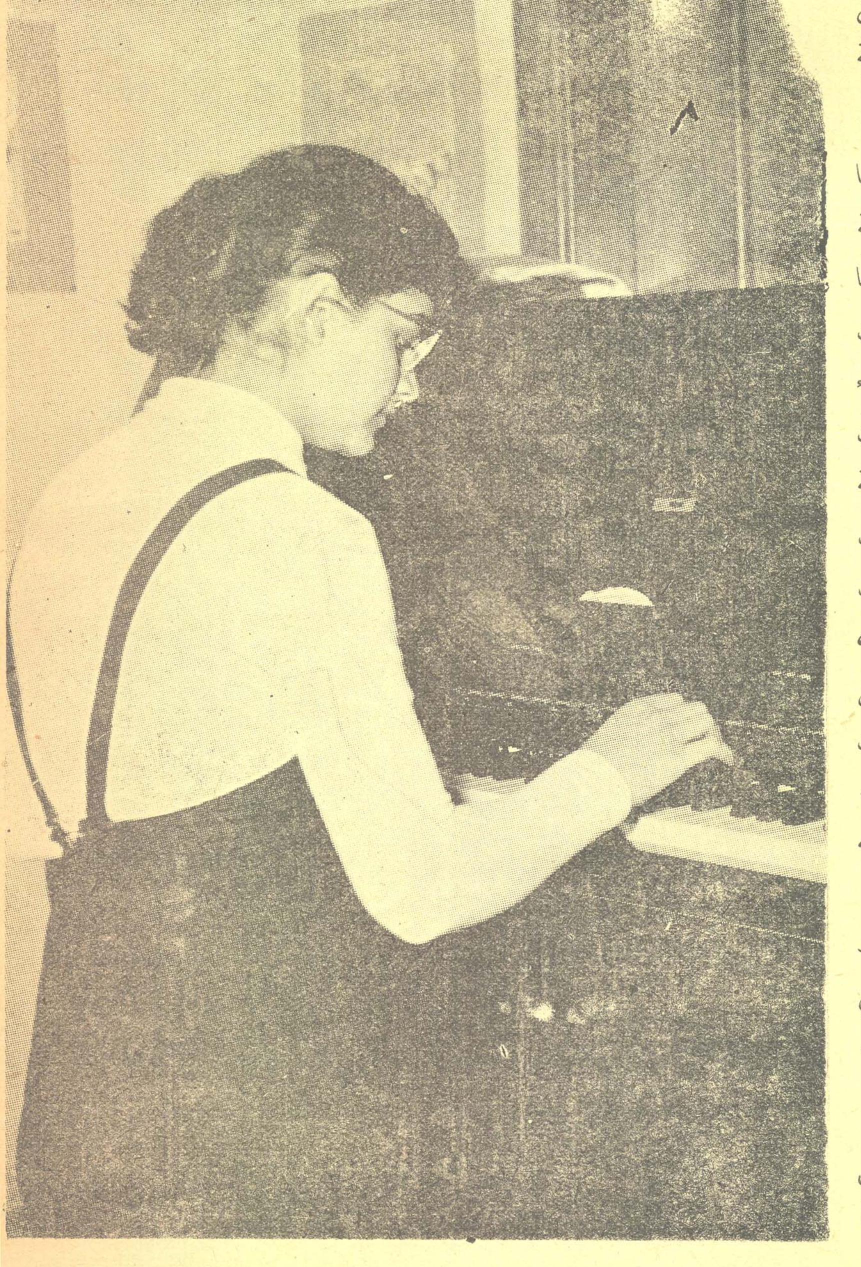
في الحقيقـة ان السينما تبدو بجوهرهـا كانعكاس لحياتنا ومجتمعنا . ورب معترض يقـول : كيف تكون صورة لمجتمعنا ونحن نكتفي باستيراد الافلام من بلدان أجنبية ؟ ومع ذلك فهذا لا ينفي أن هـذه الافلام تترجم وتنقل عددا غير ضئيل من الوقائع التي يتميز بها عالم القرن العشرين .

ورب معترض آخر يقول : ليت هـذا المجتمع الـذي تصوره لنا السينما أحيانـا بالمجتمع الذكي والجميل أو الاخلاقي .. ولـكن التفاؤل والرغبة الخيرة في التقدم لا يحولان دون الاعتراف بوجود الصور المظلمة المريرة في واقع الحياة .

وجوه جديدة

ناجي

هذه زاوية جديدة تستقبل فيها مجلة الثقافة كل وجه جديد تتفتح فيه العبقرية الفنية أو الادبية أو العلمية في صفوف الطلاب والعمال . لذا فادارة المجلة تنتظر من المربين والمربيات وأرباب الاسر موافاتها بما يعتقدون أن من الواجب اظهاره والكشف عن مواهب أبنائهم وبناتهم .



تناولت الفتاة الموهوبة بثقة واعتزاز الجائزة الاولى من ممثل جريدة « الجمهورية » لتفوقها في تمثيلية عدالة السماء ..

لقد جعلت الجمهور يعيش قلقها وخوفها وعذابها وندمها .. والتمثيلية من تأليف الفتاة التي لم تتم السادسة عشر واخراجها .. عرفت الطالبة خديجة يحيى مستقبلها اللامع ، ونفذت حجب المستقبل وتخيلت نفسها بعد سنوات وسنوات فنانة مبدعة ولكنها لرهافتها وللغشاوة السوداء تغطي العينين الحالمتين وتلف الجسد الصغير النامي وجدت الى جانب المجد والشهرة .. المرض والعذاب فكتبت عدالة السماء تصور فيها حياة فتاة موهوبة ماتت أمها واحتلت مكانها امرأة مستهترة ، أساءت اليها دون سبب .. تحملت الاساءة بصبر فلها من أحلامها ونموها الباسم ما يشغلها ، ولكن أذى الخالة امتد الى موهبة الفتاة ، ومنعتها عن الكتاب .. لم تتحمل هذا .. صامت وصامت ، وفكرت طويلا .. ثم لمعت بذهنها فكرة .. لماذا لا تتخلص منها .. ودست لها السم في الشراب ولكن الكأس أخطأ طريقه ووصل الى الاب الذي مات لساعته ..

لم تطق الفتاة الصدمة وأفاقت زوجة أبيها ، واستيقظ حقدها الكامن فاتهمتها بالقتل وساعدها كبار المحامين في كسب القضية .. وزج بالخالة في غياهب السجن .. وعاشت هي بنبوغها ومجدها ..
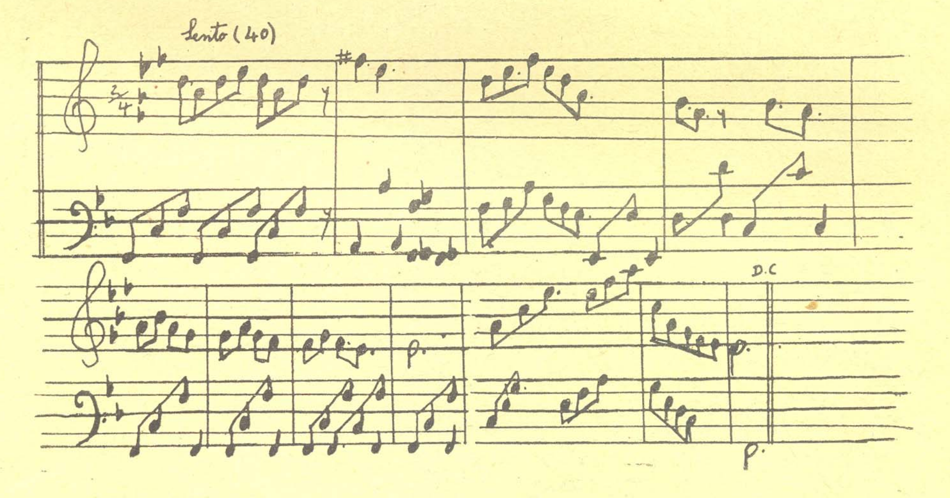
وصلت الى القمة التي رنت اليها طفلة .. وصلت على حساب صحتها وضميرها وسعادتها ، وهنا أبدعت الكاتبة

في ختام التمثيلية .. وصورت العذاب الذي عاشته البطلة تصويرا رائعا .. فقالت على لسان الكاتبة الكسيحة .. ترنيمة خاشعة فيها ندم وتوبة .

« مقطع من الفصل الاخير لتمثيلية (عدالة السماء) :

هكذا كتب علينا نحن الذين عادينا الحياة فصرعتنا ، وقاتلنا القدر فحطمنا أردنا ازهاق أرواح فزهقت أرواحنا .. وأردنا تشريد نفوس فشردت نفوسنا .. لفظتنا الحياة فهمنا على وجوهنا نطلب رحمة البشر ولكن أنى لهؤلاء أن يفعلوا لانهم موجهون بقوة خفية تسيطر على عقولهم ينظرون الينا ويشيرون الى أعداء الانسانية بأيديهم فاذا نحن منزوون على أنفسنا في الهاوية المعتمة نحدق بالنور وقد

أستحق يوما من الايام رحمة الآلهة وان عدالة السماء قد أخذت مجراها أخيرا .. وكان عقابا قاسيا لي أنا الشريرة .. كنت أتوقع أن تكون نهايتي هكذا ولكم حاولت أثناء ذلك أن أرضي الله باتجاهي الى الخير لعل هذا يكون تخفيفا لعقابي الذي أنتظره ولكن يبدو لي الآن أن الله أراد لي الشقاء الابدي أو أنه كان يتلذذ بمنظر الانسان وهو يتعذب فلم تفد صلواتي شيئا ولم يكن بد من أن أنال نهايتي هذه .. انني أتساءل وأنا أجلس في هذه الغرفة الموحشة أتساءل يا ترى لماذا اخترت ذلك الطريق الوعر المحفوف بالاخطار ؟ ! لماذا لم أكن كغيري من البشر الذين يقنعون بقليل من الشهرة والمجد ألأنني كنت أشعر في صميمي بأن نفسي أعظم من أن أخوض بها في الطريق



أجهدنا الظلام فما ان نخرج رؤوسنا قليلا الى النور حتى تطالعنا غضبة الضمير .. وصراخه الدائم فنهرول مخذولين الى مكاننا المظلم نحتمي به لاننا وجدنا فيه حياتنا وواقعنا .. بل لم يخلق الا لنا نحن الذين احترفنا تدمير ا لبشرية وقتل الانسان ..

هناك قوة واحـدة تستطيع أن تمنح نفسي القاتلـة الاطمئنان والسكينة وأن تحيل برودة الموت الى وفاء الحياة وان تنير الغابة الموحشة بنور الشمس .. وأن تهدي روحي الضالة الى مسالك النعيم .. وأعتقد أن ما هي الا تلك الآلهة التي تتربع على العرش السماوي فهي وحدها التي تهب رحمة أو شقوة ولكنني لعلى ايمان كبير بأنني لم

الواسع الذي اكتظ بآلات صماء تسير على غير هدى ؟ أم لانني كنت حمقاء حقا ؟..

كنت أرى المجد أمامي قاب قوسين أو أدنى وكنت أعلم أنه لا بد من الجهاد والعذاب لاصل أخيرا الى القمة وأنظر من عل الى الكائنـات التي لم يحركهـا الطموح بزهو وافتخار وأرثي لهؤلاء ولكنني اليوم وأنا في قمة المجد أشعر بأن هذه الشهرة قد كلفتني حياتي .. أصبحت أعيش لهؤلاء ولكنني اليوم وأنا في قمة المجد أشعر بأن هذه الشهرة قد كلفتني حياتي .. أصبحت أعيش في هاوية الفناء .. أصبح العالم يرثي لي بعد أن رثيته ..

البقية على الصفحة ٥٦

تتمة ما نشر على الصفحة « ٦ »

تحرك أبا الهول هذا الزمان
تحرك ما فيه حتى الحجر

ويعمد شوقي الى وصف آثار الاندلس العربية فينظم قصيدته السينية على غرار قصيدة أستاذه البحتري، ولكنه خلافا لاستاذه هذا يبدأ قصيدته بداية تناسب موضوعها ويدل في ذلك على أن التلميذ كان أحرص من الاستاذ على التقيد بقواعد البلاغة وبراعة الاستهلال وان كان الاساتذة الكبار قد يهزؤون بالقواعد الموضوعة ويخرجون عنها :

يقول شوقي متذكرا صباه :

اختلاف النهار والليل ينسي
اذكرا لي الصبا وأيام أنسي
وصفا لي ملاوة من شباب
صورت من تصورات ومس
عصفت كالصبا اللعوب ومرت
سنة حلوة ولذة خلس
وسلا مصر هل سلا القلب عنها
أو أسا جرحه الزمان المؤسي
كلما مرت الليالي عليه
رق والعهد في الليالي تقسي

ثم يذكر تقلب الدهر واختلاف الازمنة والليالي :

وليال من كل ذات سوار
لطمت كل رب روم وفرس
حكمت في القرون خوفو ودارا
وعفت وائلا وألوت بعبس
أين مروان في المشارق عرش
أموي وفي المغارب كرسي
سقمت شمسهم فرد عليها
نورها كل ثاقب الرأي نطس
ثم غابت وكل شمس سوى ها
تيك تبلى وتنطوي تحت رمس

ويشير الى معارضته قصيدة البحتري وينوه بعاطفته العربية القومية :

وعظ البحتري ايوان كسرى
وشفتني القصور من عبد شمس

وهنا يصف رحلته وهو في الاندلس على جناح الخيال الى بلده في سرعة البرق لا يكاد يستغرق زمنا شأن كل خيال ، وينتقل الى وصف الآثار العربية الاندلسية :

رب ليل سريت والبرق طرفي
وبساط طويت والريح عنسي
أنظم الشرق في الجزيرة بالغر
ب وأطوي البلاد حزنا لدهس
في ديار من الخلائف درس
ومنار من الطوائف طمس
وربى كالجنان في كنف الزي
تون خضر وفي ذرا الكرم طلس
لم يرعني سوى ثرى قرطبي
لمست فيه عبرة الدهر خمسي

ويبلغ التصوير في بعض المقاطع غاية الابداع والروعة ويختم قصيدته هذه ختاما فيه شيء من التكلف ليشير الى وجه التأسي من الماضي :

واذا فاتك التفات الى الما
ضي فقد غاب عنك وجه التأسي

ومن دواعي الشعور بالروعة والسمو فكرة الزمان البعيد الاعماق ، على الشكل الذي صوره الصوفية في حديثهم عن الحب الالهي المتقدم على كل زمان ومكان . ولا شك أنكم تذكرون معي قصيدة ابن الفارض الخمرية الرمزية الرائعة :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة
سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم
لها البدر كأس وهي شمس يديرها
هلال وكم يبدو اذا مزجت نجم
ولولا شذاها ما اهتديت لحانها
ولولا سناها ما تصورها الوهم
ولم يبق منها الدهر غير حشاشة
كأن خفاها في صدور النهى كتم

يقولون لي صفها فأنت بوصفها
خبير أجل عندي بأوصافها علم

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا
ونور ولا نار وروح ولا جسم

تقدم كل الكائنات حديثها
قديما ولا شكل هناك ولا رسم

وقامت بها الاشياء ثم لحكمة
بها احتجبت عن كل من لا له فهم

وهامت بها روحي بحيث تمازجا
اتحادا ولا جرم تخلله جرم

فخمر ولا كرم وآدم لي أب
وكرم ولا خمر ولي أمها أم

ولطف الاواني في الحقيقة تابع
للطف المعاني والمعاني بها تنمو

وقد وقع التفريق والكل واحد
فأرواحنا خمر وأشباحنا كرم

ولا قبلها قبل ولا بعد بعدها
وقبلية الابعاد فهي لها ختم

وعصر المدى من قبله كان عصرها
وعهد أبينا بعدها ولها اليتم

وعندي منها نشوة قبل نشأتي
معي أبدا تبقى وان بلي العظم

وفي سكرة منها ولو عمر ساعة
ترى الدهر عبدا طائعا ولك الحكم

على نفسه فليبك من ضاع عمره
وليس له فيها نصيب ولا سهم

لقد تلوت أبياتا متفرقة من القصيدة لننظر كيف يعمد هذا الشاعر المجيد الى فكرة الزمن في القصيدة من حين الى حين ليوحي الينا بشعور الروعة والسمو ، وهذا كله في صنعة عجيبة نراه فيها يتفنن منتقلا بين مستويات ثلاثة: مستوى الخمرة المادية وآنيتها وسقاتها وحبابها ، ومستوى التشبيهات الحسية التي اعتاد الشعراء أن يطلقوها في هذا المجال من شمس وبدر وهلال ونجم ، ومستوى الامور المعنوية التي هي المقصودة في الرمز من حب الهي وأقطاب ومبلغين ومريدين .

هذا بصرف النظر عن أشكال البديع الكثيرة التي ترصع هذه القصيدة في عصر كان يميل الى هذا النوع من التعبير .

ولكن المتصوفين كما برعوا في وصف الزمان الطويل المتقادم[3] الذي نشأ منذ الخلق ليتجاوزوه كذلك برعوا في تأمل حالات الضمير وتدقيق الاحوال الروحية التي تمر بسرعة البرق . هذا وفي تدقيق الامور المتناهية في الصغر وتأمل الازمنة المتناهية في القصر ما يقابل تأمل الإمور العظيمة الواسعة الهائلة والازمنة المتطاولة البعيدة . وكما نطرب في العلم لدراسة نظرية النسبية ونشعر عند دراستها بشيء من الروعة كذلك نطرب في العلم لدراسة الفيزياء الدقيقة والتمعن في بنية الذرة والكهارب وأمثالها .

فهذا الجنيد عندما ينظر في ضميره يميز بين حال الوجد الخاطفة وبين الفناء بشهود الحق الذي يلي فورا حال الوجد وهو يشير الى فاصلة من الزمن كافية للتفريق بين الوحشة والانس في كلتا الحالتين فهو يستوحش بالوجد مهما قصر لانه يفصله عن حبيبه ويأنس بالفناء لانه فناء لشهود . على خلاف غيره من المتصوفة الذين يخفون لمجرد رؤية الوجد .

يقول[4] :

الوجد يؤنس من بالوجد راحته
والوجد عند شهود الحق مفقود

قد كان يوحشني وجدي ويؤنسني
لرؤية الوجد من بالوجد موجود

هذا وقد اهتم المتصوفه بالزمان عامة وبالوقت واللحظة الحاضرة خاصة . قال الجنيد: « الوقت اذا فات لا يستدرك وليس شيء أعز من الوقت »[5] .

---

(٣) يقول فخر الدين الرازي :
شربنا على الصوت القديم قديمة
لكل قديم اول هي اول
فلو لم تكن في حيز قلت انها
هي العلة الاولى التي لا تعلل
على أن الخمر المادية يصفها شعراؤها بطول القدم ويتغنون بهذا الوصف أيضا وشتان ما بين الخمرين .

(٤) هذان البيتان منسوبان أيضا الى الحلاج .

(٥) طبقات الصوفية للسلمي ، ترجمة الجنيد .

ومن دواعي احساس الروعة في الشعر أن يعمد الشاعر الى زمنين أحدهما طويل والآخر قصير فيقرن الزمن القصير بالطويل ليسرع الطويل • وهذه الصناعة الدقيقة من جملة أسرار فن المتنبي • ومع أنه ملأ الدنيا وشغل الناس نجد الباحثين لم يوفوا فنه الشعري حقه من الدراسة •

لقد برز المتنبي في وصفه معارك سيف الدولة ، وكان هذا البطل حصن العروبة الشامخ تنحسر عنه تيارات الروم العدوانية مستميتة يائسة ، ومن أهم معاركه موقعة الحدث • وقد بيت العدو له كمائن كثيرة لجبة عند رجوعه فأظهر في التحامه معهم من براعة القتال ما ليس يضاهيه الا بلاغة المتنبي الذي كان يرافقه ويعجب به • وقد وصف شاعرنا تلك الموقعة في قصيدة لا نزال نستمتع بجمالها الفني وان نسينا قيمة تلك المعركة القومية • ومن المعروف أن المتنبي امتاز بالجزالة والروعة والفخامة في قصائده ، وهو يعتمد على عناصر شعرية للايحاء بالروعة • فهو مثلا ينوه بالقوى والمقادير الكبيرة ويقابل بينها وبين القوى والمقادير الصغيرة • ولا بد لنا من أن نتلو بعض أبيات القصيدة :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين العظيم العظائم
هل الحدث الحمراء تعرف لونها
وتعرف أي الساقيين الغمائم
سقتها الغمام الغر قبل نزوله
فلما دنا منها سقتها الجماجم
بناها فاعلى والقنا يقرع القنا
وموج المنايا حولها متلاطم
وكان بها مثل الجنون فأصبحت
ومن جثث القتلى عليها تمائم
وكيف ترجى الروم والروس هدمها
وذا الطعن آساس لها ودعائم
أتوك يجرون الحديد كأنما
سروا بجياد ما لهن قوائم

يخيل الينا أن المتنبي هنا قد تنبأ فتوقع اختراع المدرعات •

خميس بشرق الارض والغرب زحفه
وفي أذن الجوزاء منه زمازم

والقصيدة كلها رائعة حقا وكل بيت له في سياق القصيدة مكانه الذي يملؤه • ولكن لا بد من أن نجتزىء منها بهذين البيتين اللذين نريد أن نستشهد بهما :

ضممت جناحيهم على القلب ضمة
تموت الخوافي تحتها والقوادم
بضرب أتى الهامات والنصر غائب
وصار الى اللبات والنصر قادم

ضم جناحي الطائر في البيت الاول بيد قوية لا يحتاج الى مدة طويلة ولكن ضم جناحي الجيش العدو انما يتم بعد قتال عنيف وفترة طويلة من الزمان فتمثيل لف ميمنة الجيش وميسرته بضغط جناحي الطائر يشف عن قدرة ضخمة لا يصورها الا شعر لمتنبي •

وكذلك البيت الثاني : ان حصول النصر النهائي يحتاج الى مدة طويلة تستغرق على الاقل ساعات طوالا ان لم تستغرق أياما • وضرب الرأس لفلقه حتى الصدر حركة تقع في بضع ثوان • ولكن المتنبي يقرن بين الحادثتين ليوحي بسرعة النصر • هذا الى بساطة متناهية في التعبير مع طواعية كبيرة للالفاظ الملائمة للتمثيل في البيت الاول ومع الترتيب والطباق الواضحين في البيت الثاني[6] •

ومن المعهود أن حصار الجيش للمدينة ودخوله فيها لا يتمان بسهولة ويسر ولا في مدة قصيرة • بيد أن المتنبي في قصيدة ثانية رائعة يشبه مدينة سروج بالحسناء التي تستيقظ وتفتح ناظرها • وفتح الناظر انما يتم في أقل من لثانية • فهو يقرن بين هذين الزمنين ويجريهما معاً :

---

(٦) في القصيدة نفسها نجد من هذا القبيل البيت الآتي :
اذا كان ما تنويه فعلا مضارعا
مضى قبل أن تأتي عليه الجوازم
على أن الألفاظ النحوية تكاد تستر ابداع الفكرة التي تعرب عن سرعة الانجاز اذ يقل عنها لفظ حروف الجزم مدة •

فلم تتم سروج فتح ناظرها

الا وجيشك في جفنيه مزدحم[7]

هنا يبدو لنا الشاعر في هذا المجال كالمخرج السينمائي يستطيع أن يسرع عرض الشريط أو يتمهل فيه . فهو سيد الزمن يتصرف به كما يشاء وفق ما يقتضيه الغرض الفني المقصود .

ويدخل في هذا الباب المقابلة بين مدتين . وقد نجد هذا في الشعر الحديث . يقول ايليا أبو ماضي :

كن شعاعا يبين فيه كياني

لا ظلاما ولا رغام

ولا عش في الشعاع بضع ثوان

فهي خير من الف عام

ويقول أيضا :

ان حيا يهاب أن يلمس النور

كميت في ظلمة الاكفان

وحياة أمد فيها التوقي

لا توازي في المجد بضع ثوان[8]

الشعر يسبق نظرية النسبية الرياضية حين ينوه باختلاف مدد الاوقات لاختلاف الاعتبارات . وفي التنزيل الكريم : « وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون »[9] .

وثمة أبو تمام الساحر .. الساحر لانه يوقف حركة الشمس أو يردها بعد الغياب ، ونحن نقبل ذلك راضين مستمتعين بهذه البراعة السحرية . فهو يصف لحوقه بأحبابه المرتحلين لتوديعهم وقد شف الشوق فؤاده ، فلما بلغ اليهم في ظلمة الليل ورأى حبيبته شعر ببهجة لا تعادلها الا بهجة طلوع الشمس التي تغمر بنورها ثوب الليل المرصع بالنجوم فاستغرب حصول ذلك وتجاهل تحيراً وتدلهاً . ولتوكيد شعوره بتلك البهجة قال اما أن يكون هذا حلما أراه في النوم ، واما أن يكون في الركب يوشع النبي الذي رد الشمس . يقول أبو تمام :

لحقنا باخراهم وقد حوم الهوى

قلوباً عهدنا طيرها وهي وقع

فردت علينا الشمس والليل راغم

بشمس لهم من جانب الخدر تطلع

نضا ضوؤها صبغ الدجنة وانطوى

لبهجتها ثوب السماء المجزع

فوالله ما أدري أأحلام نائم

ألمت بنا أم كان في الركب يوشع

كان يحرص أبو تمام على توليد الافكار الجديدة وهو القائل عن قصيدة له :

يقول من تقرع أسماعه

كم ترك الاول للآخر

وقد ترك تراثا خصيباً وطريقة جديدة لمن أتى بعده من الشعراء . ولم تذهب على شوقي الذي تخرج في مدارس الشعراء الاقدمين ، هذه الالتفاتة الفنية ، اذ يحرص على اعادتها حين يتيسر له ذلك فهو يخاطب الشمس مستهلا .

قفي ياأخت يوشع خبرينا

أحاديث القرون الغابرينا

ويقول في رثاء سعد زغلول :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها

وانحنى الشرق عليها فبكاها

ليتني في الركب لما أفلت

يوشع همت فنادى فثناها

وفي هذا البيت لا يكتفي شوقي بالاستفادة من شعر

---

(٧) في القصيدة نفسها :

نتاج رأيك في وقت على عجل

كلفظ حرف وعاه سامع فهم

(٨) تبدو ديباجة أبي ماضي شاحبة بالقياس الى الشعراء القدماء ولو قال في البيت :

وحياة قد مد فيها التوفي

لكان ألصق بالطبع العربي الذي يميز بين لفظ أمد المستعمل في الخير ولفظ مد المستعمل في غيره . هذا وقد أصبح ابو ماضي في الوقت الحاضر شاعرا كلاسيكيا بالنسبة للشعراء « المجددين » ! .

(٩) سورة الحج : وفي سورة السجدة « يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون » .

أستاذه أبي تمام والتلميح الى قصة يوشع بل يأخذ لفظ الركب أيضا[10] .

وقد وصف الشعراء اختلاف الزمن النفسي وتقاصره عند المسرة والفرح وتطاوله عند الانتظار والضجر . ونحن نستلمح بيتي ابن بسام الذي يفرق فيهما بين الزمان الخارجي الموضوعي وبين الزمان النفسي فيقول:

لا أظلم الليل ولا أدعي
أن نجوم الليل ليست تغور
ليلى كما شاءت فان لم تزر
طال وان زارت فليلى قصير

دون أن يتجاوز هذا الاستملاح الى الاعجاب . وثمة شعر كثير في طول الليل وفي قصره يتردد بين الجودة والابداع . وانما تحصل الجودة والابداع حين تشتمل الفكرة الفنية على صورة تلونها أو صنعة خفية تخدمها وتؤيدها كما في بيت الشريف الرضي :

ياليلة كاد من تقاصرها
يعثر فيها العشاء بالسحر

فكما أن المرء يتعثر بحجر قرب قدمه أو حاجز يفجؤه لم ينتبه له كذلك تعثر الليل بالسحر القريب المفاجىء . هذا زيادة على ما في معنى العثور من الازعاج والكراهية. ففي هذه اللفظة الحسية استطاع الشاعر ان يعجل مرور الليل كله تعجيلا عجيبا .

وقد يخفى معنى البيت الذي يعبر عن سرعة مرور الليل فيزيده خفاؤه جمالا . فالبيت الذي يتغنى به :

ما العمر الا ليلة
كان الصباح لها جبينه

جماله حاصل من بعض خفاء المعنى فيه ، ولولا هذا الخفاء لكانت الفكرة بسيطة ولكادت تكون مبتذلة وهو أن الحبيب لما زار أشرق جبينه فلم أشعر بالوقت الاوقد مضى وطلع الصبح ، فكأن الصبح لاح سناه من جبينه حين أتى[11] .

ومثله في الغموض والخفاء قول الهذلي :

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها
فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

على شهرة هذا البيت :

وهو « يحتمل وجهين من التأويل ـ كمايقول صاحب المثل السائر ـ احدهما انه أراد بسعى الدهر سرعة تقضي الاوقات مدة الوصال فلما انقضى الوصل عاد الدهر الى حالته في السكون والبطء . الآخر أنه أراد بسعي الدهر سعي أهل الدهر بالنمائم والوشايات فلما انقضى ما كان بينهما سكنوا وتركوا السعاية » .

ان الشعر اذن يظهر حرية كبيرة في سيطرته على الزمان . فهو يستطيع ان يعجله أو يجعله بطيئا حسب الغرض الفني ليبلغ الى الامتاع والى احداث الشعور بالمأساة كما في وصف الطلول أو الروعة والسمو كما في وصف الآثار والمعارك والحالات الصوفية أو احداث الجمال كما في وصف لقاء الاحباب .

ولكن الشعر يمكنه أن يؤثر في حوادث الزمان فيبدلها تبديلا ليحدث بذلك تأثيرا هزليا مضحكا . واذا ذكرنا الهزل والاضحاك المتصلين بفكرة الزمان فمعنى ذلك أن هذه الفكرة تشمل تنافرا وتناقضا مخلين يخفضان من قيمة الانسان الهازل الذي نضحك منه . نحن نضحك بوجه عام من الغفلة ومن المغفلين . ومن التغفيل الخلط بين الازمنة. نعرف أن المحامين ليجرحوا الشهود يسألونهم بعض الاسئلة المتعلقة بالزمان فاذا ظهر اختلاط أجوبتهم

---

(١٠) ابن السبكي يأخذ عن أبي تمام تلميحة بقصة يوشع في بيته :

وردت اليك الشمس بعد مغيبها
كما أنها قدما ليوشع ردت

(١١) يقول العباس بن الأحنف في طول الليل :

أيها الراقدون حولي أعينو
ني على الليل واتركوا الاعتذارا
حدثوني عن النهار حديثا
أوصفوه فقد نسيت النهارا

ويقول شوقي :

سألتني عن النهار عيوني
رحم الله ياعيوني النهارا
قلن نبكيه قلت هاتي دموعا
قلن صبرا فقلت هاتي اصطبارا

كان ذلك مدعاة لرفض شهادتهم . فوعي الزمان اذن دليل لحس الطبيعي المشترك . وقد نجد بعض النوادر المتصلة بالزمان في كتب الادب ، سئل بعض المغفلين عن ميلاده فأجاب ولدت رأس هلال رمضان للنصف من شعبان بعد العيد بثلاثة أيام فاحسبوا كيف شئتم . وربما كان المجيب واعيا ولكنه خلط بين الازمنة على عمد للهزل والاضحاك . والسكر كالتغفيل من الامور التي تجعل الانسان يضيع حس الزمان .

قال رجل لبعض أصحاب لنبيذ وجهت اليك رسولا عشية أمس فلم يجدك . فقال : ذلك وقت لا أجد فيه نفسي .

وقد تختلط الازمنة على السكران فلا يميز الحاضر من الماضي ولا من المستقبل . والسكران دائما موضع الضحك والسخرية ان لم يكن موضع الرثاء . وربما عمد الشاعر الى وصف حالة السكر بما يبدو من آثارها هذه ولعل هذا النوع من التعبير أقوى بيانا من مجرد دعوى الشرب . استمعوا الى هذا الشاعر الذي يزعم أن النشوة تسبق الشرب فهو سكران في الماضي قبل أن يشرب في المستقبل :

أسكر بالامس ان عزمت على
الشرب غدا ان ذا من العجب

وسواء أشرب هذا الشاعر أم لم يشرب فنحن نجده فناناً عرف سيطرة الشعر على الزمان فزعم تقدم المستقبل على الحاضر وتأخر الحاضر عن المستقبل ليصف لنا وصفاً بارعاً هزليا حالة السكير ، وصفاً قل أن يباريه وصف في البراعة والتعبير حين خلط على عمد بين الازمنة . هنا نجد أن الزمن أصبح مقلوبا . واذا استحال الامر في الزمان الخارجي فالمستحيل ممكن في الزمان الشعري الغريب .

لقد باعد العلم بين تصور المكان وتصور الزمان . ولكن نظرية النسبية الرياضية عادت فقرنت بينهما . وربما كان اقترانهما قريبا في الواقع من الحس الانساني . فاذا رأينا صورة حقل من الحقول استطعنا عند القاء أبصارنا عليها أن ندرك أبعاده والاشجار فيه والحيز الذي يشغله في المكان . ولكنا في الوقت نفسه نستطيع أن نحكم في أي فصل من فصول السنة أخذت الصورة بمجرد تأمل شكل الشجر أو حالة الحقل . وكذلك اذا نظرنا الى انسان قدرنا عمره الزماني حين ننظر شكله المكاني . فالمكان والزمان أكثر اقرانا وأشد التحاما مما يتصور الفلاسفة .

وهذا ما يتضح في الشعر . فالشعراء بسبب هذا الاقتران كثيرا ما يستعيرون الصور المكانية للدلالة على الزمان وبالعكس قد يستعيرون الالفاظ الدالة على الزمان للتعبير عن المكان . هذا امرؤ القيس في فجر الشعر العربي يصف طول الليل فيعمد الى استعارات مكانية في أبياته المشهورة :

وليل كموج البحر أرخى سدوله
علي بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه
وأردف أعجازا وناء بكلكل[١٢]
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي
بصبح وما الاصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه
بكل مغار الفتل شدت بيذبل
كأن الثريا علقت في مصامها
بأمراس كتان الى صم جندل

وكذلك خندج بن خندج المري يصف ليله في صول فينسب الى الليل بعدين طولا وعرضا ويدعو لو لاح له الصبح لامسك به حرصا عليه ويرى الليل كأنه مكسو او كالفرس المشكول وأن نجومه ثابتة في الجو كالقناديل كل ذلك في بلاغة عاطفية مؤثرة :

---

(١٢) المتنبي يمثل الزمان بالانسان حين يقول :

أتى الزمان بنوه في شبيبته
فسرهم وأتيناه على الهرم

هذا وعند المتنبي فكر متعددة تتعلق بالزمان . الزمان عنده أيضا وسيلة للثروة الروحية :

« فلا عبرت بي ساعة لا تعزني »

في ليل صول تناهى العرض والطول
كأنما ليله بالليل موصول[13]

لا فارق الصبح كفي ان ظفرت به
وان بدت غرة منه وتحجيل

لساهر طال في صول تململه
كأنه حية بالسوط مقتول

متى أرى الصبح قد لاحت مخايله
والليل قد مزقت عنه السراويل

ليل تحير ما ينحط في جهة
كأنه فوق متن الارض مشكول

نجومه ركد ليست بزائلة
كأنما هن في الجو القناديل

ويستطيع الشاعر بأساليب شتى أن يبلغ الى ما يدعى بالكاريكاتور وذلك بأن يبالغ في تغليب الطابع الشخصي على الطابع النوعي على حد تعبير شوبنهاور للكاريكاتور فهو لكي يصور لنا أنف ابن حرب يتصور فعلين يجريان في زمن واحد يصدران عن شخص واحد في مكانين مختلفين •

لك أنف يابن حرب
أنفت منه الانوف

أنت بالدار تصلي
وهو بالبيت يطوف

وهناك شيء لا يقل غرابة عن هذا • فالمعروف أن الشخص اذا دخل من باب دخل جملة واحدة في وقت واحد • ولكن الشاعر أراد أن يداعب حبيبته مداعبة تدعو الى الابتسام • ويبدو أنها كانت ذات أرداف ضخمة، فصور ضخامتها المكانية بألفاظ زمانية :

من رأى مثل حبتي
تشبه البدر اذ بدا

تدخل اليوم ثم
تدخل أردافها غدا

* * *

لقد عرضنا نماذج شعرية كلها تمس فكرة الزمان وتتفاوت دلالاتها وقيمها الفنية وتترجح بين مشاعر المأساة والروعة والسمو والجمال والفكاهة والتصوير الهزلي• ووجدنا أن الشعر في تعبيره لا يصف ما هو واقع بالضبط في الزمان الخارجي بل انه يظهر حرية في تصرفه بفكرة الزمان اذ يسيطر عليها سيطرة وينشئها انشاءا جديدا يناسب غرضه الفني • وهنا يبدو جانب الانشاء والخلق في الفن • اذ يبدو الزمان عنصرا من عناصر الفن وهو بذلك يبدو عنصرا من عناصر الفكر عامة ••

ان الفيلسوف الالماني هيغل يضع الشعر في ذروة الفنون لاسباب متعددة منها مرونة دلالته واتساعها •وقد رأينا جانبا من هذه المرونة والاتساع • وهو يقول في ماهية الفن : « ليست المحاكاة هي التي تمتعنا وانما هو الانشاء • وأقل اختراع يفوق أكبر آثار المحاكاة • فعبث اذن أن نقول ينبغي للفن أن يحاكي الطبيعة الجميلة • ان اختيار الفن لبعض العناصر ليس محاكاة لان رسالة الفن أعلى ولان نهجه أكثر حرية من ذلك ، انه يباري الطبيعة • وهو يعبر عن الافكار مثلها بل يفوقها في التعبير • انه يستعمل الاشكال الطبيعية رموزا ليشرح تلك الافكار وهو لذلك يكيف تلك الاشكال على غرار أصفى وأكمل » ••

على أن الفن عند هيغل معروف ليس الا مرحلة من مراحل تحقق الفكر • يعرض الفكر في هذه المرحلة قواه الخاصة بحرية كبيرة وتكون الفكرة اذ ذاك متصلة بالصورة وملتحمة معها التحاما صميما • ولكنها ليست الا مرحلة تؤدي فيما بعد الى الدين والى الفلسفة •

(١٣) يقول شوقي في تمثال نهضة مصر عن أبي الهول :

وقد جاب في سكرات الكرى
عروض الليالي واطوالها

بقية ما نشر في الصفحة ٤٨

ليت المجد لم يعرف طريقي وليتني كنت انسانا منسيا أحمل سعادة على أن أكون في القمة أجرر أذيال العدم .

* * *

أنا قاتلة روح طالما رددها لساني عاليا ورن صداها في وادي نفسي العميق ولكن ما من أحد يدري بالحقيقة الكامنة في ثنايا النفوس .. حطمت حياة انسان بريء فزج بي في غياهب الظلمات لانجو أنا المذنبة من عدالة الارض لتلقطني عدالة السماء فحكم علي بالموت البطيء .. بالعذاب .. بأن أبقى كسيحة مقعد صغير .. لا .. لا تنظر الي هكذا .. لا أريد نظرات الرثاء والاشفاق من الناس .. أتطلع هنا وهناك فلا أرى غير الرثاء ولا أرى غير الاشفاق .. تبا للورى ألا يكفيني رثاء نفسي .. ألا تكفيني تلك الهمهمات المتلاحقة في أعماقي المتعبة ؟.. ألا تكفيني ضحكات ضميري الساخرة ؟.. كل شيء حولي ينظر الي بسخرية وكأنه يقول لقد استحققت النهاية المحتومة .. انه صوت الماضي يتتابع في مخيلتي .. دائما ذلك الطنين المستمر الآتي من أغوار سحيقة من الماضي البعيد .. كفى .. كفى .. لا أريد أن أسمع شيئا .. لقد تحطمت .. ما الفداء الذي يطلبه الضمير بعد .. لم يبق شيء سوى الحياة .. من وراء هذا الستار الكثيف .. ومن وراء الجدران الصماء أرى أبي يطل علي .. وأكاد ألمس بسمته وحنانه ولكنه بعيد عني .. هناك هوة سحيقة تفصلنا و .. ولن أستطيع الوصول اليه بسهولة .. أكاد أرى زهرات الحقل وهي تتمايل على أنغام الرياح أكاد ألمس تربة الحديقة التي كنت أتنزه بها .. أكاد أرى نجمات الصباح وحارسات الليالي .. في ركن بعيد وتحت الخمائل الوردية وبين أزهار البنفسج كنا نجلس أنا وأمي يجمعنا حروف كلمة صغيرة .. حب .. حنان أين أنا اليوم ؟!.. على عيني غشاوة سوداء لا أرى منها الضياء الحقيقية .. لا أرى منها غير أشباح ماض رهيب يدور ويدور أمام مخيلة متعبة .. آه .. من هناك .. صوت آخر .. أولغا تئن من وراء قضبان سجنها.. مسكينة لقد جنيت عليها.. أبتاه انتظراني هأنذا قادمة اليك .. لا .. لا تذهب .. لا تتركني وحدي .. ان الاشباح لتملأ هذه الغرفة اللعينة .. أكاد أسمع أصوات أنات وآهات .. وأصوات سلاسل حديدية .. وصفقات أبواب .. لا .. لا تذهب .. انتظر .. ان السماء تطلبني .. انها عدالة السماء ..

* * *

وهكذا تعذبت وتألمت حتى أدركت الشعلة البراقة . ولكن المسير أضناها فحطت الرحال على مقعد صغير .. هكذا أرادت السماء أن لا تتمتع بما كافحت من أجله سنيا طوالا وتركتها وحيدة مقعدة .. في قلبها ظلام .. وبعينيها دموع .. وأمامها أشلاء كتب صماء ..

●

استمعت اليها وهي تؤدي هذا الدور باتقان عجيب في المركز الثقافي العربي ولم أصفق طويلا كغيري ولم تأخذني نشوة الفرح ، وعلت شفتي بسمة صغيرة عندما سألتني زميلتي ، لماذا لم تتحمس مع أنك تحبين الفتاة كثيرا ؟.. فازدادت ضحكتي اتساعا ، فحارت بأمري وظنت بي سوءا ..فقلت أنت تصفقين لها لانك ترين ممثلة ناجحة ومؤلفة موهوبة .. أما أنا فأرى غير هذا .. أرى هذا الابداع بسيطا وبسيطا جدا ، ولا يكاد يلمح .. فحملقت بي تود أن تصرخ .. عمل صغير !.. فاسترسلت ، أجل عمل صغير .. اذا قيس بموهبة الفتاة الاصيلة .. العزف .. من يستمع الى خديجة وهي تداعب مفاتيح البيان وترسل ترنيماتها الكئيبة يعرف معنى الموهبة الحقة .. انها تعزف وبمهارة مع أنها لا تملك بيانا ولم تتلق سوى عشرة دروس على يد راهبة عجوز.. اسألي رواد معرض ثانوية البنات الثانية عن الالحان الساحرة التي كانت تنساب من ذاك الركن المظلم انتقته الطالبة خديجة خلوة لها .. اسألي صالة العرض الكبرى هناك تخبرك عن النشوة العلوية التي لا تزال تبعثها وترددها جدرانها الى الآن .. انها تعزف و تؤلف قطعا رائعة .. تضع ألحانا فيها حزن ونعومة وصوفية .. انها تعيش مأساتها ، مأساة أرضها ووطنها عنيفة دافقة ووضعت لذلك أوبريت غنائية .. صاغت الكلمات ووضعت لها اللحن وأشرفت على التمثيل

والغناء وعزفت .. فكانت تمثيلتها الغنائية . أحسن عمل مدرسي وأظن غير مدرسي في نكبة فلسطين .

ثم استمعي اليهـا تتغنى بأفكارها وأحلامهـا برعشات ناعمـة تحضنها الورقة بحنان وتنساب معهـا بدلال .. فتهمس للقلم عن أمانيها وحياتها ..

همسة ...

حياتي أغنية حزينة في قلب صديق مجهول ..
يغنيها طير شريد على غصن الوجود ..
مع لحن قيثارةِ الحياة المحطمة ..
حياتي نغمة عطر جميل ..
تذوب في أعماق القلوب فتنتشي بها حينا ..
ثم لا تلبث أن ينتمي ذكراها الى الابد ..
وتدور مع دولاب الغناء ..
الى بيتها الصغير المليء بالسرور .. بالفرح ..
حيث لا ألم هنا ، .. ولا عويل هؤلاء الذين يتعلقون..
دوما بعالمهم الزائف ..
ما قيمة حياتي اذا لم أحبك أيها الآله ..
فانت قبس روحي ..
ومشعل قلبي أثرته بنور الايمان ..
واشعلت فيه لهيب ثورة متمردة ..
على العصيان ..
فاليك يا الهي أسجد في محرابك المقدس ..
أطلب الرحمة ..

* * *

الى اخوتي ..
الى اخوتي الذين غرست في قلوبهم بذور الشقاء ..
أزرع شجرة المحبة والخلود ..
لتكون حصاد ربيعهم البادي في طلعة الدرب المشوق ..
الى اخوتي ..
انظم اكليلامن ورود الحياة ابنه في صنايا صدورهم البائسة..
في كلمات أغنية صغيرة ..
لينشدوها يوم يغرب القمر الواهد وهم ..
في طريقهم على درب الحصاد ..
ويوم تشرق شمس نفوسهم فيشعرون بدفء الوجود..
ويوم تأفل أوراق الخريف الذاوية ..
مع افول الشجرة السوداء الراسية في رابية أفكارهم ..
حينئذ يكون حصادهم زاخر سعادة ومحبة ..
اخوتي ..
لنسر جميعا على الدرب ولننشد أغنية الاله ..
حاملين مشعل الانسانية بيد ..
وفي الاخرى قلوبا ندية ..
لنسر .. حاملين اللهيب .. نفرق به ضباب اليأس ..
وينير أمامنا السبيل ..
نحرق به بذور التمرد القابعة ..

* * *

في زوايا النفوس الصغيرة ..
انها دائما حائرة يمت عن السر العميق ،

الوجود :

لا تسلني لم الوجود ..
لا تسل عن خلجة الفؤاد ..
عن دمعة لحظي في الدجى ..
عن عزف روحي على أوتار الخلود ..
لا تسلني لم الوجود ..
لا تسل عن فتات ابن الهوى ..
عن دقة الساعة في محرابها المقدس ..
عن كهف الحياة المعشوشب بالحب .
لا تسل عن كل هذا ..
فالريح تصفر في شجرة الخريف الذاوية ..
والسماء ارتدت ثوبها المثقل بالهموم ..
تبكي مسرتها الغانية ..
والرعد يدوي هادرا ..
هذا وجودنا ..
فلا تسلني أيها الانسان ..
لم الوجود !!..

* * *

ثم تتعب من السؤال الحائر فتلتفت الى أختها وتستوحي منها الجواب وتشكو لها منابها الكثيف البعيد وسيرها الطويل .

أيا أختاه كم أفناني وأتعبني المسير .. في دروب حالكات ليس لها هدير .. الحب كؤوس نشوة الالم المرير، وحيدة في رأسي الصغير همسات غدير الحان ناي مشردة تموج في ماء نمير .

★ ★ ★

بالامس دقت نواقيس الذكرى في واد عميق فتدافعت ملبية ندائي من معناها العميق وتعالت ضربات أجراسها مؤذنة برحيل صديق وتقربت وجنات السماء بجمرة الشفق الرفيق وهكذا الحياة صدقيني .. ميلاد وفناء عميق ..

★ ★ ★

وابنة النكبة لا تنسى النكبة .. ابنة التراب الخضيب والوطن السليب ، لا تنسى المغتصب الاثيم ، واللعنة الابدية وذل التشرد والعبودية ..

صاحت يوم تقسيم فلسطين فدوى صياحها في أرجاء باحة المدرسة الكبيرة وارتجت له الارض والسماء في الظلام الرهيب .

موضوع فلسطين :

في الظلام الرهيب وفي عتمة الدروب الطويلة وفي خطى وليدة أكلها المسير على نغم حزين .. نغم الحياة الكئيب .. تصبح بهم شريدة . لا .. أنا لست وحيدة .. بل أنا مع قافلتي طريدة .. نجوب الفيافي .. نقطع الوهاد .. نفترش الثرى .. عيون السماء ترمقنا بؤسا .. نسير ونجد الخطى والمسير الى أين معذبون .. نجوم السماء تتلألأ وفي كبد الجوزاء قمر منير .. حلم .. شعاع النور يضيء أمامنا موطن الظلام نبيده فنسير في ركاب بعضنا نجرر أذيال الشقاء .. هؤلاء - أصدقاؤنا .. شريد من قال هذا .. امنا شهدت بذلك والقمر والنجوم .. من قال هذا ؟! أبانا الاكبر شهد بذلك والجبل والسهل والوادي ختم على الاقدام العارية وعلى الاجساد البالية وعلى النفوس التي تحمل لعنة القدر .

أرض بلادي .. أين أنت .. أحقا دق ناقوسك معلنا هجرانك الابدي أم هذا طبل القدر الذي حمل مع ضرباته الموت والدمار لنا ؟! لا أدري سوى انني روح نبذها الوطن فهمت أستجدي سعادة .. حرية مغتصبة .. في قلبي قيد حديدي يمنع أوتاره من عزف نغم الوجود الانساني .. نغم السلاح الذي ثرت على ايقاعه صدى النفوس المنطلقة نحو النور .. نغم الحرية .. نغمك أنت يافلسطين .. نغم روابيك الخضراء وجنانك الفيحاء ..

بالامس كنت الهو عند الجدول الصغير أجمع الرياحين أتوج بها بيتنا الجميل ..

بالامس كنت أجلس عند تلة زلف أسمع وشوشة البحر وهمسات الطيور وأنعم بنسمات الحرية العليلة ..

بالامس كنت أضع الشرائط الحمراء في جدائل شعري المنسابة .. وأعدو حيث الارجوحة بين أشجار السنديان والزيتون ..

بالامس كنت والسعادة على موعد .. بالامس كنت حرة طليقة أجوب الوطن والبسمة على ثغري .. واليوم أقبع هنا أنتظر نهاية شقائي وفي عيني عبرة .. وفي قلبي حزن عميق .. نقمة على الظالمين - على المغتصبين . بلادي هي لي .. محرابي المقدس .. فيها ولدت وتحت أشجار زيتونها سأغفو اغفاءتي الابدية ويوم تدوي أبواق النصر معلنة انقشاع دولة الظلم سأعود اليك يافلسطين حاملة معي قلبي وروحي أقدمها لك هدية في يوم عيدك المجيد .

وأعماقها الكئيبة تنعكس لوحات فنية ، واذ فترة الطبيعة ضباب واشراقة شمسها غيوم .. يلفها خيط نور ضعيف وأمل عريض - يقبع وراء الحجب اللامحددة .. ترسم فيطبعها اللون وينسجم مع انسياب روحها المتمردة .. فتعيش مع اللون وتعطيه من قلبها الخافق ، ولحنها الراعش فيجسد لوحات فنية كانت ولا تزال فخر مدرستها وأساتذتها .

صورة :

أعرفت لماذا لم أصفق لها تمثل فتبدع وتتألم فتبكي الحضور .. لاني أرى خلق التمثيلية فنانة أصيلة ، تفخر بها بلادها ، وتعتز .. أرى عازفة ماهرة تملأ دنيا العروبة الحانا نحن بحاجة اليها وأنغامها نحن على موعد معها ..



فيلسوف القومية العربية بقلم : لمعي المطيعي

في اوائل فبراير عام ١٩٤٨ ، وفي مدينة القاهرة .. وبالتحديد بقاعة الجمعية الجغرافية .. كان المثقف الكهل ـ الكهل في العمر لا في الثقافة ـ كان يحاضر في فكرة القومية العربية .. وجيلنا يستمع اليه وهو يقول :

(ان فكرة القومية لا تزال في بدء نشوئها ، وفي الصفحات الاولى من تأثيرها الفعال ، فلا يزال أمامك عمل طويل سيؤدي الى انقلابات معنوية وسياسية هامة في جميع أنحاء العالم العربي وبين جميع الشعوب العربية)

ولم يكن جيلنا يظن أن الايام ستسرع بهذا الشكل ، وتضعنا بعد عشرة أعوام من التاريخ السابق ، أمام الانقلابات المعنوية في جميع أنحاء العالم العربي . وبين جميع الشعوب العربية .. ومبعث الدهشة هو أن جيلنا قد ورث من الجيل الذي سبقه « نظرية الاصفار » التي نادى بها (سعد زغلول) عندما سؤل عن الوحدة العربية، فقال : ان الوحدة العربية بمثابة صفر + صفر .. ومبعث الدهشة أيضا أن جيلنا قد ضرب عليه حصار فكري من عمالقة الادب والصحافة في مصر .. فالاستاذ زكي عبد القادر يثابر في أعداد مجلة (الفصول) عام ١٩٤٥ في الكتابة عن « الشخصية المصرية » دون اشارة واحدة للاطار العربي .. والمرحوم « سلامة موسى » يتحدث عن الاصل الفرعوني ..والاستاذ « احسان عبد القدوس » يتحدث على صفحات (روز اليوسف) بمثل ما قال به سعد زغلول .. والاساتذة والدكاترة .. حسين مؤنس واحمد زكي والمرحوم حفني محمود .. يروجون للنزعة الاقليمية .. وان اختلفت الاسباب .. وتقوم مدرسة أدبية كاملة ، يقودها الدكتور طه حسين، تدعو لربط ثقافتنا وادبنا بالادب الاجنبي ، دون بحث عن التراث العربي .. وفي ظل هذه الظروف كلها .. يثابر فيلسوف القومية العربية على غرس جذور القومية العربية في عقولنا ..

ولكن لماذا نقول بأنه ، فيلسوف القومية العربية ؟.. اننا لا نعني بالطبع ، ان القومية العربية كفكرة ، مدينة بوجودها لمفكر بذاته ، أو لجملة من المفكرين .. ولا نعني بالطبع أن القومية العربية وليدة رغبة مفكر أو فيلسوف .. فالقومية العربية ـ ليست نتاج هذه الافكار أو تلك ، بقدر ما هي نتاج لرغبات الشعب العربي ، وبقدر ماهي تعبير عن وحدة الارادة ، وبقدر ما هي تمثيل لمقتضيات الوطن العربي .. وبقدر ما هي حركة صاعدة تدفعها الاحداث وتدفع بالاحداث ..

غير أن ما فعله « ساطع الحصري » وهو المكنى (بابى خلدون) ـ وخلدون ابنه معتقل حاليا بالعراق ـ هو تماما ما يفعله كل فيلسوف يقف وراء فكرة معينة ، يتعهدها وهي بذرة ضعيرة ، وبذات الوقت فهو بمثابة ـ اليسو جراف ـ المسجل الدقيق للاحداث في تطورها ، ويكشف عنها في مكمنها.. ويظل يرعى الفكرة ويدافع عنها .. حتى يحين الوقت الطبيعي لتفرض وجودها .. وهنا اختلاف الفيلسوف عن المؤرخ .. وهنا اختلاف ساطع الحصري عن كل الذين كتبوا عن القومية العربية، يؤرخون لها ، بعد أن فرضت وجودها .

لقد تبنى ساطع الحصري قضية القومية العربية، وهي ما زالت رغبة وليدة لدى جزء من الوطن العربي (كمنطقة الشام) وهي ما زالت فكرة غامضة لدى جزء آخر .. لقد تبناها ودافع عنها في الحركة العملية ـ حسب ما كان يعتقده وقتئذ انه معبر عن فكرة القومية العربية ـ كاشتراكه في (الثورة العربية) واشتراكه في الحكومة العربية

بسوريا ، بعد هذه الثورة .. وأقول ـ حسبما يعتقد ـ لاننا قد نكون على خلاف في تفسير حركة (الثورة العربية بقيادة الشريف حسين) .

ما هية الامة وعناصر القومية :

يرى « ساطع الحصري » أن للقومية أساسين ـ وحدة اللغة والاشتراك في التاريخ ـ وله في ذلك أبحاث مطولة يعتبر فيها اللغة محور القومية وعمودها الفقري ، ودور الذكريات التاريخية في تقريب النفوس واضح معروف.. وهو في سبيل ذلك يشن هجوما متواصلا على خطة (الدول المستولية) ـ يقصد الدول الاستعمارية ـ في الغاء تاريخ البلاد التي تقع في قبضتها .

وللحقيقة نقول أن هذه الافكار لم تكن أصيلة لدى (الحصري) وانما هي نتاج لصراع نظريتين في القومية :

النظرية الالمانية ، والنظرية الفرنسية

فالنظرية الالمانية ، دافع عنها (ستراوس وموسن)

والنظرية الفرنسية ، قال بها (رينان ودوكولانج)

وفي بحثنا لمؤلفات (الحصري) وجدناه في بداية حياته الفكرية يأخذ بالنظرية الفرنسية ، وهي المعروفة تاريخيا باسم (نظرية المشيئة) والتي تقول في مفهوم القومية « أن الامم تتكون بمشيئة الجماعات ، فحدودها يجب أن تتغير وفق ما تقتضيه هذه المشيئة » .. غير أنه ما يلبث أن يرفض نظرية المشيئة ، ويأخذ بالنظرية الالمانية ، ونعتقد أنه ما زال مؤمنا بها .. وهو يقول في ذلك ..

« .. ان النظرية التي عرضها رينان ، يجب علي أن أعترف بأنني أيضا كنت أخذت بها عندما أطلعت عليها ، وبقيت أقول بالنظرية التي تتضمنها مدة من الزمن، ولكني بعد ذلك بدأت أشك في صحتها ، وكلما توسعت في أبحاث الاجتماع تيقنت أنها كانت بعيدة عن جادة الصواب بعدا كبيرا .. نستطيع أن نقول بلا تردد أن النظرية الالمانية في قضية (ماهية الامة وعناصر القومية) أصح وأحكم من النظرية الفرنسية » .

تقول النظرية الالمانية

« .. ان الامة كائن اجتماعي حي ، يتكون بعمل اللغة والتاريخ ، وينشأ نشأة طبيعية ، مثل سائر الكائنات الحية ، واللغة انما هي العامل الاصلي في تكوين الامة ، فيجب أن تكون العامل الاساسي في تحديد الدولة » .

ونحن وان كنا نحمد للحصري ، اعترافه بخطئه في اعتناق النظرية الفرنسية ، وهي سمة الفيلسوف الذي يحترم الواقع والدراسة الموضوعية .. الا أن الدراسة الموضوعية قد أضافت للغة والتاريخ ، كأساسين للقومية، اسسا أخرى ، كالارض المشتركة ، والسوق الاقتصادي المشترك ، والتراث النفسي المشترك..وكل هذه العناصر متوفرة تماما في القومية العربية ، رغم أن ما كتب حول هذه المواصفات الخمسة للقومية العربية لم يكن بالعمق العلمي الكامن ، وما زال في حاجة الى مزيد .

النزعة الاقليمية

ولم يكن يقلق بال (أبى خلدون) مثلما أقلقه الاتجاه الاقليمي .. وكان يعتبر هذه الدعوة سواء كانت عن قصد أم عن عدم فهم لتطور القومية العربية، كان يعتبرها احدى الضربات الشديدة التي توجه لفكرة القومية العربية .. ومن هنا كان دأبه في الرد على أية نزعة اقليمية مهما كانت عابرة ..

فهو يرد على ما جاء بشكل عابر في صحيفة (المصور) و (روز اليوسف) مثلا .. ويرد على أحاديث الكتاب والمسئولين في كافة البلاد العربية .. ويشرح ويوضح خطأ عابرا في حفل مدرسي مثلا .. ذلك كله الى جانب الدراسة الجادة .. فنراه يتوفر على دراسة برامج الاحزاب في بعض أجزاء الوطن العربي ، ويقف موقف التأييد لكل نص يخدم قضية القومية العربية .. ويقف موقف العداء الشديد لكل نزعة انفصالية .. وله في ذلك تجربة طريفة ، نوردها لما فيها من احساس الفيلسوف

بمسئوليته •• واحساسه بالخطأ اذا أخطأ ولا يرى غضاضة في أن يعلن ذلك على الناس•• تلك هي تجربته مع (الحزب القومي السوري) ومع رئيسه (انطون سعادة) •

•• لقد ظن الحصري أن الحزب المذكور يهتم بفكرة القومية ، كما بدا له ذلك من عنوان الحزب ، فدرس برنامجه واجتمع بقادته وتقابل مع سعادة ، وبالطبع كان أنطون سعادة في بداية نشأته يعمل على تضليل من حوله ، فيرسل بشعارات الاصلاح والوحدة القومية•• ويقول الحصري في أحد مؤلفاته انه خدع بهذه الشعارات وأثنى على الحزب وقادته •• غير انه خلال متابعته لاراء هذا الحزب •• ودراسته لمؤلفات قادته •• وفحصه لمواقفهم •• وكما يقول ، بدأ يلمس شيئا فشيئا أن هذا الحزب ليس له برنامج محدد ، وان احاديث قادته يعوزها الدقة والعلم ، ويغلب عليها التضليل والسفسطة •• فسجل هذه الانتقادات وأرسلها الى جريدة الحزب •• ووضح الموقف أمام الحصري •• ولمس أن الحزب ليس جادا فيما يزعمه من اصلاحات ووحدة قومية•• والحقيقة أنه أبعد ما يكون عن القومية العربية ، وان دعوته الصريحة كانت تنحصر في مشروعات سورية الكبرى وغيرها من المشروعات الاقليمية مما أثار ثائرة (الحصري) وجعله يشن هجوما فكريا واسعا على أفكار (القوميين السوريين) •• وعاد يدرس مؤلفات (سعادة) ويفندها ، ويخرج ما بها من تناقضات ، وفي أحد مؤلفات الحصري يجد القارىء عرضا كاملا لاراء القوميين السوريين واعترافا صريحا من المؤلف بأنه خدع ذات يوم في هذه الاراء••

ولقد أثبتت الاحداث في السنوات الاخيرة ما لجماعة سعادة من اتصال باعداء الوطن العربي ، وما لدورهم من تخريب للوحدة العربية •• ويكفينا اعتراف المؤلف بخطئه على نطاق كتبه •• ونشكر له ما سطره لنقد الفكرة الخاطئة التي بشر بها سعادة •• فان الابحاث العلمية ، كما يقول الحصري ، لا تؤيد اعتبار « وحدة الاصل » كاحد أسس نشأة القومية أو نشأة الامة •• فان هذه الابحاث لم تثبت أن شعبا ما بذاته ظل محتفظا ــ من الوجهة العلمية ــ بوحدة الاصل والمنشأ •• لذلك لا أساس علمي عند الذين يقولون بالاصل الفينيقي لبلاد الشام ، أو بالاصل الفرعوني للمصريين •• فقد طرأ على هذه البلاد كثير من التغيرات الطويلة والعميقة مما يصبح معه الحديث عن وحدة الاصل والمنشأ نوع من تخطي العلم » •

الوحدة من أجل الوحدة ••

واذا كنا نلمس هذا الحماس ضد النزعة الاقليمية ، فاننا كثيرا ما نلمس في كتاباته ما يمكن أن تطلق عليه (الوحدة من أجل الوحدة)••بغض النظر عن الاوضاع القائمة ، وبغض النظر عن طابع هذه الوحدة •• وهو يعرض رأيه كالاتي •• ان أي عمل توحيدي لا بد وأن يكون له في نهاية الامر نتيجة سليمة •• لان وحدة الهيئات الشعبية ، سوف تعطي الوحدة مضمونا ثوريا •• وهذا الكلام في حاجة الى مناقشة موضوعية••لان الوحدة العربية جزء لا يتجزأ من الخطة العامة لتصفية النفوذ الاستعماري في المنطقة••ومن هنا كانت الوحدة المصرية السورية وحدة ثورية •• لانها قامت بين بلدين مستقلين •• وقامت لتكون طليعة للحركة التحررية العربية •• ومن هنا كان (الاتحاد الهاشمي بين الاردن والعراق) اتحادا رجعيا القصد منه وقف حركة الوحدة العربية المتحررة التي تقودها، الوحدة الثورية الجديدة في المنطقة ونقصد بها « الجمهورية العربية المتحدة » •• ومن هنا أيضا كان موقف المرتد قاسم في معاداة الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة ، عملا رجعيا ، لانه يساعد النفوذ الاستعماري أن يسترد أنفاسه في المنطقة •

وثمة نقطة هامة،فان الاستعمار وقد ادرك أهمية شعار الوحدة ، أخذ يزيفه ، ويلقي بالعملة المزيفة في السوق فنراها من جانب الاستعمار البريطاني في الجنوب العربي ونراها من جانب الاستعمار الفرنسي في افريقيا•• ومن

ثم فاذا كنا نادي بالوحدة العربية،فاننا نريدها على الطراز الذي أتم «الجمهورية العربية المتحدة» ...ونكون يقظين تماما لكل عملة مزيفة تحمل على وجهها صك الوحدة.

الطريق السليم للقومية العربية .

وان كنا نعتقد أن الحصري قد أخطأ في فهمه لمضمون الوحدة ، فليس معنى ذلك أنه لم يفهم الاطار الصحيح للقومية العربية ، بل نجده بفهم عميق يرسم اطار هذه القومية .. فمن المعروف أن القومية العربية في مرحلتها الاولى ، كانت تنشأ خلال الصراع مع العثمانيين..وقد كانت القومية العثمانية - وقد كانت بشكل مغاير للقومية العثمانية الحديثة - كانت هذه القومية العثمانية تقوم على الدين ، شأنها في ذلك شأن القومية في البلقان التي كانت تعتمد على الكنيسة..وقد حاول العثمانيون استغلال الدين الاسلامي ، لالغاء شخصية العرب واخضاعهم للخلافة العثمانية..ولم يكن من الغريب أن نجد الحركة القومية العربية في مرحلتها الاولى تمتزج بالدين..ويتضح ذلك من كتاب «أم القرى» لعبد الرحمن الكواكبي الذي نشر في مصر عام ١٣١٦ هجرية..وتقول أن هذا الوضع كان لازما لبلورة القومية العربية..لان جزءا رئيسيا من خلق القومية العربية، كان عنصر النزاع بين العرب والعثمانيين عن (أحقية الخلافة) ..

وليس في هذا ما يصيب القومية العربية ، لانها سرعان ما تبلورت واتضحت معالم شخصيتها ، وجاء جيل ساطع الحصري ليدافع عنها ، ويرد على افتراءات الغرب ويقدم لنا دراسة ممتعة لدور المسلمين والمسيحيين في القومية العربية.. وينشر « نجيب عازوري » بباريس عام ١٩٠٥ ، مؤلفه عن (يقظة الامة العربية) يوضح فيه دور المسيحيين في القومية العربية..ويقف الشيخ أحمد طبارة في المؤتمر العربي الاول بباريس عام ١٩١٣ . ليرد على الغرب ، وليرد على أعداء القومية العربية ويقول «نحن نعني بالعربي كل ناطق بالضاد، لا فرق في ذلك بين المسلم وغير المسلم»

القومية والتكتل الدولي عند الحصري

قد لا يكون تعبير (التكتل الدولي) دقيقا فيما يقصد اليه الحصري فهو عندما يستخدم تعبير (التكتل الدولي) يقصد به (التضامن الدولي .. وقد يتطرق للاذهان أن (الحصري) لكثرة ما كتب عن القومية ، انه ينحو منحى ضيقا ، الا أنه على عكس ذلك تماما ، لا يعارض فكرة التضامن الدولي .. وهو يرى أن نشوء الفكرة القومية حديث العهد ، ومن ثم اذا كنا نحرص على هذا الكيان الوليد فيجب أن نفهم جيدا موقف القومية العربية من التضامن الدولي .. ويرى أن أي دعوة للتضامن الدولي لا تراعي كيان القومية العربية ، انما مؤداها تحلل هذه القومية ، وتضامن دولي مفتعل .

ونرى جانبا آخر في موقف الحصري بهذا الصدد ، وهو الموقف من الثقافة الاجنبية..ففي معرض رده المطول الذي بعث به الى هيئة اليونسكو لا يرفض أي ثقافة أجنبية، ما عدا الثقافة الاستعمارية بالطبع .

من أجل هذا نحن نقدره

قد يختلف جيلنا مع هذا الرجل..وقد يتفق..وقد نرفض بعض ما يقول .. وقد نقبله..الا أن الامر الذي لا خلاف حوله .. هو أن الرجل كان فيلسوفا مخلصا لفكرة القومية العربية ولا تظن أحدا يتجاهل عشرات المؤلفات التي كتبها..والاراء والاحاديث التي سطرها.. والدراسات التي قدمها..والجهود العملية التي بذلها.. تنقل في معظم البلدان العربية يشرح ويدعو للقومية العربية..ويرد على كل ما يوجه ضد فكرة القومية العربية عود على بدء

في اوائل فبراير عام ١٩٤٨، كان جيلنا يستمع لفيلسوف القومية العربية .. يشرح أفكارها وهي ما زالت حديثة العهد..وفي أوائل فبراير عام ١٩٥٨ ، بعد عشرة أعوام ، كان جيلنا بذاته يستمع لبطل القومية العربية .. جمال عبد الناصر يعلن مولد « النواة الثورية » للقومية العربية .. حقا .. انه جيل على موعد مع القدر .

القاهرة - لمعي المطيعي